# تولستوي

## اعترافات

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

891.78
T654i
C.1

لجنة التأليف والترجمة والنشر

# اعترافات تولستوى

قصة أديب فيلسوف
بدأ حياته بالشك في الدين
وانتهى بالإيمان واليقين

ترجمة الأستاذ
محمود محمود

Cat. 26 Aut. 53

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

# تولســـــتوى

## حياته وآراؤه

كان ترجنييف — وهو من أعلام الأدب الروسى الحديث — يعجب بتولستوى أشد العجب ، ويعده أعظم كاتب أنجبته الروسيا منذ أول التاريخ . وظل يتمدح باسمه فى كل مجلس وكل منتدى ، إلى أن هجر تولستوى الأدب المحض ، واتجه إلى البحوث الدينية الغامضة . حينئذ أشفق ترجنييف على هذه الموهبة العظيمة أن تنطفئ شعلتها ، وساءه أن تخلو مكتبة هذا الأديب الفحل — الذى أصاب فى تصوير الطبيعة والإنسان ما لم يصب أحد من قبل — من كل كتاب سوى الإنجيل وبعض الرسائل الدينية . ولشدّ ما كان يخشى ترجنييف أن يبذل تولستوى خير سنى إنتاجه فى التأملات الدينية التى لا تؤدى إلى غاية ولا تهدى إلى سبيل .

وألمّ المرض بترجنييف ، وأقعده عن الحركة والعمل ؛ ولكنه ، رغم ما كان يعانى من ألم ، ويكابد من سقم ، أمسك بقلمه ، ويده ترتعش من الضعف والوهن ، ودبج رسالة حارة إلى صديقه الأديب العظيم نابغة الروس ، رسالة — كما وصفها ترجنييف نفسه — لا تنبعث إلا من قلب مخلص ليس بينه وبين القبر إلا قيد خطوات . وقد ألحّ ترجنييف على صاحبه فى هذه الرسالة البليغة أن يهجر الفلسفة والدين ، وأن يرتد إلى الأدب الخالص ، فهو ميدانه الذى يبزّ فيه كل قرين .

ولكن تولستوى لم يُعِرْ هذه الصيحة المنبعثة من فراش المرض أذنا مصغية ، ولم يجب على الرسالة فى حينها . ومرت الأيام ، وهمّ تولستوى بالكتابة إلى صاحبه ، ولم يكد يتم كتابه حتى فاضت روح ترجنييف وصعدت إلى بارئها ، ومات الرجل دون أن يعلم أن صديقه قد ضرب برجائه عرض الحائط . وفى الحق إنه كان شديداً على تولستوى أن يستجيب لدعوة صاحبه ، وأن يعود إلى الأدب ، لأنه لم يسلك طريق الدين ترفاً أو غروراً ، ولم يتأمل خلق الله عن تطلّع وتشوّف وحسْبُ ، بل لقد أحس كأنه ينساق إلى تلك الطريق انسياقاً ، وينحدر إليها بغير إرادته وهو راغم .

كان تولستوى أول الأمر لا يفكر إلا فى هذه الحياة الدنيا ، ولا يمتد بصره إلى ما وراء الواقع المحسوس ، بل لقد كان أرهف حساً من كل أديب سواه . ولم يجنح يوماً إلى البحث الدينى الخالص ، ولم يفكر قط لمجرد التفكير . إنما كان يعنى فى فنه قبل كل شىء بعناصر الحياة الملموسة القريبة ، لا بمعانيها الغامضة البعيدة . ولا نشك أنه تحول إلى التأمل والنظر الدينى راغباً أو عامداً ، ولكنه أصيب بصدمة نفسية مفاجئة ، صدمة ارتعدت منها فرائصه واهتز لها كيانه ، وأخذ من هولها يلتمس له دعامة تسنده فلا يضطرب ، ويطمئن إليها فلا يهوى .

حلّت هذه الأزمة النفسية بتولستوى وهو فى نحو الخمسين من عمره . وهى أزمة لا نستطيع أن نصفها ، ولا نستطيع أن نردها إلى سبب بعينه ؛ فقد كان الرجل يعيش عيشة لا تؤدى فى ظاهرها إلى ضيق ، ولا تؤدى إلى حرج ، وواتته حينئذ كل عوامل الحياة السعيدة ، وتوفرت له كل أسباب النعيم : كان رجلاً قوىّ البنية ، صحيح البدن ، ثاقب البصر ، حاد الذكاء ، يعده أترابه من المجددين فى الأدب ، وكان صاحب ضيعة واسعة ، ومال وفير ، فلا يحسب للمادة حسابا ؛ وكان نابه الذكر بعيد الصيت ينتمى إلى أسرة من أنبل الأسر ، ويجيد الكتابة بلسان قومه إجادة تجعله إمام الكتاب وشيخ الأدباء ؛ وقد انتشرت رواياته وقصصه فى أنحاء العالم طرًّا حتى عرفه كل قاص ودان ، وكانت حياته المنزلية سعيدة مشبعة بروح العطف والحنان ، وكان له زوج وكان له بنون . . . ومن العسير بعد هذا أن نلتمس سبباً ظاهراً يدفعه إلى التبرم والضجر .

ولكن هذه الأزمة التى حلت بصاحبنا برزت إليه من ظلام النفس لا من نور الحياة ، فأحس كأن شبحاً مخيفاً يطارده ويتهدده ، واسودّت الدنيا فى عينيه ، وكاد أن يقف فى بيداء الحياة لا يبدى حراكاً . وكثيراً ما كان يسائل نفسه : « ماذا دهانى ؟ ما هذه الكآبة التى عرتنى بغير سبب ؟ ما هذا التبرم ، وما هذا الانزعاج ؟ إنى لم أعد أجد فى الحياة متعة ، أو أشعر فيها بما يهزّ منّى الحس والعاطفة . لقد باتت زوجى غريبة عنى ، وتخلى عنى أبنائى غير آبهين . وأمسى العمل إلى نفسى بغيضاً ممجوجاً ! » وبلغ منه اليأس والضجر أن أخفى عن نفسه بندقية الصيد خشية أن يصوبها إلى صدره فى ساعة من ساعات القنوط ، فيقضى فى لحظة لا يرقبه فيها أحد . ويقول عن نفسه على لسان شخص من أشخاص روايته

(أنا كرنينا) : « لم يعد عندى شك أنى ككل كائن حىّ لن أصيب فى هـذه الدنيا غير الألم وغير الموت والفناء . إنى لن أستطيع العيش على هذه الحال ، فإما أن أجد للغز الحياة حلاً أو أنتحر » .

ولن نحاول هنا أن نتعرف إلى طبيعة هذا النزاع الباطنى الذى جعل من تولستوى مفكراً ومبشراً ؛ ولربما كانت أزمة نفسية طارئة جزعاً من تقدم السن والشيخوخة أو خوفاً من الموت ؛ وربما كان انقباضاً عصبياً ثم استحال جموداً روحانياً . ومن طبيعة الرجل العبقرى — والأديب خاصة — أن يلاحظ هذه الأزمات النفسية ، وأن يحاول أن يغلبها ويخرج منها ظافراً . فلما اشتد بصاحبنا القلق تساءل جازعاً : « لعلى لم أعش كما كان ينبغى أن أعيش » وشرع يختبر نفسه كل يوم ، ويفكر فى معنى الحياة ، وكان ينشد الحقيقة ويغوص لجة الفلسفة لا عن لذة طبيعية فى التأمل أو عن تشوّف عقلىّ ، ولكنه أراد أن يتقى اليأس ، وأن يخلص من هذا القنوط . ومن ثم سار — كما سار باسكال — على هامش الفلسفة ولم يضرب فى صميمها ؛ وبمكتبة موسكو وثيقة بخط يده بقيت من ذلك العهد الحائر يقول فيها : « هناك مسائل مجهولة ينبغى لى أن أجيب عنها ، وتلك هى : لماذا أعيش ؟ وما السبب فى وجودى ؟ وما الغرض منه ؟ وما معنى هذه التفرقة بين الخير والشر التى أحس بها فى دخيلة نفسى ؟ وكيف ينبغى أن أعيش ؟ وما الموت ؟ وأين سبيل الخلاص ؟ » .

ولكن الإجابة عن هذه الأسئلة كانت فوق العمل الأدبى الذى ألف ، فاضطر إلى ممارسة الفلسفة اضطراراً ، واشتغل بها ثلاثين عاماً بعد هذا .

ولم يكن تولستوى من قبل شاكّاً ، بل كان يعيش ظاهراً وباطناً عيشة هادئة حرة أبيقورية ، كلها نشاط وكلها عمل ، ولما انقلب إلى الفلسفة مفاجأة — كما رأينا — أخذ يقرأ الثقات فى الموضوع ، ويتعرف إلى آرائهم فى نشأة الإنسان وفى الغرض من حياته ؛ وشرع يقلب صفحات الكتب الفلسفية ذات المنازع المختلفة ، ويستطلع آراء أفلاطون وكانت وشوبنهور وباسكال ، لعله واجد فيها للحياة معنى . ولكن الفلسفة والعلم كليهما لم ينتهيا به إلى غاية ، وقد أسف تولستوى أشد الأسف إذ تبيّن أن آراء هؤلاء الحكماء — كما يقول — « واضحة جلية دقيقة حينما تبتعد عن مشاكل الحياة المباشرة ، ولكنها لا تهدى

الحائر إلى سبيل ، ولا تبعث الطمأنينة إلى القلوب الضالة القلقة ؟ وكلها يقصر دون سؤالى الذى طالما حِرْت فيه ، وذلك هو : لماذا نحيا ؟ » .

وهنا ينتقل تولستوى إلى المرحلة الثالثة من حياته ، فقد طلق الأدب أولاً ، وطلق الفلسفة ثانياً ، ثم توجه إلى الدين لعله يجد فيه هداه . تنكرت له المعرفة فأخذ يبحث عن عقيدة ، وازورَّ عنه العقل فمال إلى القلب ، ودعا الله قائلاً : « اللهم هبنى إيماناً قوياً أملأ به قلبى ، وأهدى إليه غيرى » .

وفى هذه المرحلة التى تشتت فيها ذهن تولستوى لا نراه ينتمى إلى عقيدة بعينها ، أو يبتدع رأيا جديداً لم يسبقه إليه أحد ، ولم يفكر فى الثورة على الدين السائد ؛ وإنما أراد أن يلتمس طريقاً وهدفاً لنفسه الحائرة كى يعيد إلى روحه دعتها وطمأنينتها . أراد أن ينقذ نفسه من حيرتها لعله يجد معنى لحياة ليس لها فى ظاهر الأمر معنى ، ولم يخطر له حتى آنئذ أن يعلن على المسيحية القديمة التقليدية ثورته ، بل إنه ليعاود الزُّلفى لدى الكنيسة — بعد أن كان قد تخلى عنها وعن الصلاة إبان الشباب — ويخضع لها ولقانونها ، ويؤدى فريضة الصوم ، ويحج إلى المعابد والأديرة ، ويخشى الله ويجادل القسس ورجال الدين ، ويتعمق دراسة الكتاب المقدس .

وفى هذا الدور وقع له ما يقع لكل باحث وراء الحق حائر ، فقد لمس ما أصاب أوامر الدين ونواهيه من إهمال ، وأدرك أن ما تعلّمه الكنيسة الروسية من تعاليم المسيح دخيل على المسيحية مضاف إليها . فرأى أن من أولى واجباته أن يفسر معنى الإنجيل الحق ، وأن يعلّم الناس هذه المسيحية الجديدة خالصة من كل لبس أو غموض . ثم أمسى بعد ذلك تولستوى الباحث قساً ، وبات القس مبشراً بدين جديد . وأخذ يأسه الشخصى يتخذ صورة عقيدة جديدة ثابتة ، وإصلاح خلقى ، وقاعدة يقوم عليها كيان الجماعة . واستحال سؤاله الأول الذى طالما أزعجه وهو : « لماذا نعيش ؟ وكيف ينبغى أن نعيش ؟ » إلى جواب صريح وهو : « هكذا ينبغى أن نعيش » .

ولكن الكنيسة الأوربية — وقد عاشت الآن زهاء ألف عام — كانت تحس إحساساً دقيقاً بالخطر الكامن فى كل محاولة فردية لتفسير الإنجيل ، وكانت تعلم حق العلم أن كل فرد يحاول أن يصوغ حياته وفقاً لكلمة الله وحدها لا بد أن ينتهى إلى نزاع مع

الكنيسة وخلاف مع الدولة . ولذا فقد صادر أولو الأمر ( اعترافاتى ) وهو أول كتاب لتولستوى عن المبادئ العامة ، ولم يسمحوا له بالذيوع والانتشار ، وصادر مجمع القساوسة المقدس كتابه الثانى ( عقيدتى ) . وترددت الكنيسة طويلاً قبل أن تتخذ الخطوة الحاسمة الفاصلة احتراماً للكاتب العظيم ، ولكنها اجترأت آخر الأمر وقررت أن تحرم الرجل من رحمة الكنيسة ، لأن تولستوى بدأ يهز أساس الكنيسة والدولة والنظام . وبات تولستوى — ككل من حاول من قبل أن يعود بالمسيحية إلى نشأتها الأولى ، وأن يعيش على كلمة الإنجيل وحدها — عدو الدولة اللدود ، وأصبح فى نظر الحكومة فوضوياً ثائراً يهدد كيان الجماعة . ولكن الرجل بقوته وعزيمته ومقدرته على تحمل المشاق وشجاعته التى لا تعرف الخور ، بزَّ كل مصلح دينى سبقه من أمثال لوثر وكلفن ، ولم يعرف القرن التاسع عشر عدواً للنظام خطراً عليه مستميتاً فى دفاعه كهذا الأديب الفنان العظيم .

واشتدت العداوة بين الرجل و بين أصحاب النفوذ ، لأن الكنيسة والدولة تعرفان أن أخلص المصلحين وأشدهم نبوغاً هم بعينهم أولئك الذين يثيرون الأرض وما عليها و يحرضون عليهما قلوب البشر . والكنيسة والدولة تعرفان أن المسيحية الأولى ترمى إلى مملكة فى السماء لا فى الأرض ، وأن قوانين المسيحية الأولى ثائرة تنكر الحكومة ، لأن المؤمنين يرفعون المسيح فوق قيصر ، ودولة الله فوق دولة الإنسان ؛ وهذا لا يتفق وواجبات الرعية المخلصة ، ولا يتفق وقوانين الدولة وكيانها . ولكن تولستوى لم يدرك بادئ الأمر كل هذه المشاكل المعقدة التى تقوده إليها بحوثه . ولم يرتدع عن نقد الحكومة ونقد الكنيسة . وتفقد أبناء الروسيا آنئذ فهداه الرأى إلى أن عدم المساواة فى الشئون الاجتماعية ، والتباين بين الفقراء والأغنياء ، و بين الترف والبؤس ، هو العلة الكبرى والداء الوبيل . وتبين له من نقده لنفسه ذلك الظلم الشديد الذى كان يصدر عن زملائه أبناء الطبقة الرفيعة . وأخذ على نفسه أن يرد هذا الظلم بكل ما وسع من قوة ، وأن يحرر الشعب من كل عسف وحيف . وقد مر بموسكو ذات يوم فشهد عن كثب ذلك الحاجز العظيم بين حياة الغنى وحياة الفقير ، فأصدر كتابه « ماذا نفعل ؟ » يصور فيه هذه الزيارة الأولى لعاصمة الروسيا ، وما شهد من بؤس الجماهير فى هذه المدينة العظيمة . ولا شك أنه رأى بعينه النافذة من قبل بؤس العامة وشقاءها ، ولكنه كان شقاء القرى والريف ، لا شقاء المدن الصناعية حيث تتجمع الألوف

من عامة الناس — ذلك الشقاء الذى كان يعتبره وليد العصر الحديث ونتيجة للمدنية « الآلية » . وأخذ تولستوى الآن يطبق آى الإنجيل بطريقة عملية ، فحاول أن يحدَّ من البؤس بالهدايا والمنح ، و بعطفه على الفقير وحبه له . ولكنه سرعان ما أدرك عبث هذه الجهود الفردية ، كما أدرك أن المال وحده لا يصلح لقلب حياة هؤلاء البائسين ؛ إن أردنا أن نرفع مستوى العامة وجب علينا أن نعيد بناء المجتمع . ويقول تولستوى فى هذا : « إن بين الغنى والفقير حائلاً من التعليم الزائف . وقبل أن نمدَّ أيدينا لمعونة الفقير ينبغى أن نرفع المعاول ونهوى بها على هذا الحائل القائم . إنى لم أعد أشك فى أن الثروة هى السبب الحق فى بؤس العامة وشقائها » .

فكان الكاتب إذاً يعتقد أن بالبناء الاجتماعى الراهن خللاً وصدوعاً ، وأن من واجبه أن ينبه مواطنيه إلى مواطن الخلل والضعف ، وأن يعلم الناس ويحذرهم ويبين لهم سعة الهوة بين طبقة وأخرى . وكان فى الواقع يرمى إلى ثورة خلقية نفسية لا إلى ثورة دموية هدامة . كان يرمى إلى ثورة فى العقائد تؤدى إلى المساواة بين الطبقات ، وكان يريدها ثورة تقوم على الضمير ، وتتم بتنازل الأغنياء طوعاً عن ثرواتهم ، وتخلى الكسالى الذين لا يعملون عن بطالتهم ، وتنتهى بتقسيم العمل تقسيماً جديداً . فلا يغير أحد على أحد ، ويتساوى الجميع فى الحاجات . ومن ذلك الحين بات أديبنا يرى الترف سماً زعافاً فى جسم الجماعة ، سماً يجب اقتلاعه للتسوية بين الناس أجمعين .

ومن هذه العقيدة بدأ تولستوى يهاجم الملكية أشد مما هاجمها ( كارل ماركس ) ومن أقواله فيها : « إن الملكية اليوم أساس لكل شر ، فهى تسبب الألم لمن يملكون ومن لا يملكون على السواء ، وهى — بالضرورة — تؤدى إلى النزاع بين الأغنياء والفقراء » .

وما دامت الدولة تعترف بمبدأ الملكية ، فهى فى رأى تولستوى دولة آثمة لا تقوم على أساس صحيح من الدين أو الاجتماع ، و « إنما تتآمر الدول وتتقاتل لأن كلا منها ينشد المُلك ، فتراها تحارب تارة على ضفاف الرين ، وطوراً فى أفريقيا ، وطوراً فى الصين أو فى البلقان . إن أصحاب المصارف والمتاجر ، وأصحاب المصانع وملاَّك الأراضى ، إنما يعملون ويدبرون للملكية وحدها . والموظفون يتقاتلون ويغشون ويظلمون ويألمون من أجل الملكية وحدها . إن العقوبة والسجون إنما تقوم لحماية الملكية دون سواها »

يرى تولستوى أن هناك هيئة واحدة كبيرة تسرق وتخدع وتحمى كل ظلم ، وتلك هى الدولة التى قامت لحماية الملكية وحسب ، والتى أقامت قواها المختلفة وزودتها بالقوانين والقضاة والسجون ورجال الشرطة والجيوش لهذا الغرض وحده . وأكبر إثم ترتكبه الدولة هو فرض الجندية على الجميع . ويرى الكاتب — تبعاً لهذا أن المسيحى الذى يخضع لقانون الدولة يخرج على تعاليم المسيح وأحكام الإنجيل ، لأنه يحمل أداة قاتلة يهدر بها دم الغريب من أجل كلمة عارضة : هى الوطن أو الحرية أو الدولة ؛ وهى كلمات جوفاء لا ترمى إلا إلى حماية الملكية وتقديسها . وقد كتب تولستوى مئات الصفحات يشرح كيف أن الدولة بدفعها الناس إلى القتال إنما تحملهم على نقض ما يأمر به الله ، وما ينادى به الضمير .

* * *

انقلب تولستوى إذن من باحث دينى إلى فوضوى ثائر . أخذ الآن ينادى بملء فيه أن من واجب كل فرد ذكىّ عاقل على شىء من مكارم الأخلاق أن يقاوم الدولة إذا طلبت إليه ما ينافى « العقيدة المسيحية » ، كالخدمة العسكرية أو القتال . ولا يرى تولستوى أن تكون هذه المقاومة بالقوة والسلاح ، وإنما تكون بالعداء السلبى وعدم التعاون . ومن رأيه أن لا يستغل أقوياء الأمة ضعفاءها فيسخروهم لأعمال لا تعود عليهم بطائل . والرجل الشريف عنده من يفكر ويعمل ، لا فيما يقتضيه الوطن ، وإنما فيما تقتضيه الإنسانية بأسرها .

ولا ينى تولستوى عن الإشارة إلى حق الفرد المقدس فى أن يعمل ما يوحيه إليه ضميره ، لا ما تمليه عليه الدولة ، وأن لا ينفذ للدولة أمرها إن شذت عن قواعد الأخلاق . ونصيحته لكل مسيحى مؤمن ألاّ يؤيد الدولة الظالمة ، فلا يحتكم إلى قاض ، ولا يقبل وظيفة فى الدولة حتى لا يفسد قلبه ، ويبقى نقياً طاهر الذيل .

ويرى تولستوى أن جرائم الأفراد لا تفسد الجماعة كما تفسدها الدولة بنظمها ومؤسساتها ، ويقول فى ذلك : « إن اللصوص والقتلة والمزوّرين مثال حى لما ينبغى أن نعمله ، نفزع من جرمهم ، ونزدرى ما يرتكبون من إثم . فهم لذلك أقل خطراً من أولئك الذين يقترفون القتل والسرقة والعدوان ، ويتوارون وراء ستار من الدين والعلم والتقاليد ؛ أولئك هم ملاّك الأراضى ، وأغنياء التجار ، وأصحاب المصانع ، فهؤلاء بما لهم من مكانة بين الناس يوحون إلى غيرهم ، أن يحذو حذوهم وينهج منهاجهم . إن خطرهم لا يقتصر على من يقع تحت طائلتهم

وحسب ، إنما يمتد إلى ألوف البشر فيفسدون ضمائرهم حتى يضطرب فى أذهانهم ميزان الخير والشر . . . إن حكماً واحداً بالموت يقضى به ظلماً رجل من رجال القضاء نابه مثقف — ويؤيده رجال الدين — يفسد الإنسانية أكثر مما تفسدها ألوف جرائم القتل ، يرتكبها عمّال جهال مدفوعين بعاطفة أو شعور . إن الحروب — رغم ما قد تزعمه الدولة من تبرير لها ، ورغم ما تدّعيه من ضرورتها وعدالتها ، ورغم ما يحوطها من ثناء وإجلال للمقاتلين ، وما يكتنفها من تقديس الحرية والوطن ، وإنقاذ الجرحى ومعونة البائسين — إن الحروب التى تشنها الدولة — رغم هذا كله — تفسد الناس فى عام واحد أكثر مما تفسدهم ملايين جرائم النهب والقتل يرتكبها الأفراد بتأثير العاطفة فى مئات السنين » ؛ أو بعبارة أخرى : إن الدولة والنظام الاجتماعى الحاضر ، هى أكبر آثم وأكبر مقوض للجماعة ؛ هى الشر المجسد ، ويحملها تولستوى كل تبعة وكل عار .

وإذا كانت الدولة هى الشر ، وهى ستار الفوضى على الأرض ، فإن تولستوى يرى إن واجب المؤمن أن يجتنب كل ما يتطلبه هذا الشبح الشيطانى ، وكل ما يغريه به . إنما المسيحى الحق هو من لا يأبه لروسيا — أو لفرنسا أو انجلترا — لأنها دولة لها قدس ولها كرامة . المسيحى الحق لا يجعل الدولة أساساً لتفكيره ، وإنما يضع العالم بأسره نصب عينيه كلما خطا خطوة أو قام بعمل . وهكذا ثار تولستوى على الدولة كما ثار على الكنيسة من قبل ، وأعلن « أنه لا يستطيع أن يعترف بالدول والأمم ، ولا أن يشترك فيما ينشب بينها من شجار ، لا بالكتابة ولا بالعمل . وأنه لا يستطيع أن يساهم فى عمل يقوم على العداوة بين دولة وأخرى ، كالعوائد والضرائب ، وصناعة المفرقعات والأسلحة ، وكل تأهب للحرب أو استعداد لها » الرجل المؤمن عند تولستوى لا يحاول أن يفيد من نظم الدولة ، ولا أن يثرى تحت حمايتها ، ولا أن يبنى لنفسه مستقبلاً فى ظلها ، ولا أن يتوجه إلى قاض من قضاتها . الرجل المؤمن لا يستغل ما تنتجه الدولة من صناعة ، ولا يستخدم فى حياته شيئاً من عمل الآخرين ، ولا يرضى أن يكون من المالكين . الرجل المؤمن لا يداول النقد ، ولا ينتقل بقطار أو سيارة ، ولا يشترك فى انتخاب برلمانى ، ولا يشغل وظيفة عامة ، ولا يقسم يمين الإخلاص لقيصر أو لأى سلطة أخرى ، لأنه لا يدين بالطاعة إلا الله وحده دون سواه ، ولكلماته التى أنزلها على لسان أنبيائه المرسلين . المؤمن عند تولستوى — أو قل عند هذا

الرجل الفوضوى الثائر — لا يحكم غير ضميره ، ومن أولى واجباته أن ينكر الدولة ، وأن يعيش خارجها على قواعد أخرى من الأخلاق . وهو بهذا يختلف عن الثائر السياسى الذى يمقت الدولة ولا ينكرها .

ويثور تولستوى هى نظم الجماعة السائدة ، ولكنه لا يشير بمقاومتها بالعنف والشدة — كما قدمنا — لأن الثورة تحارب الشر بالشر ولا تنتهى إلى خير . ومن أقوال تولستوى فى هذا الصدد : « إن المقاومة السلبية الفردية هى وحدها السبيل المشروعة للعراك . وعلى المسيحى أن يكابد مظالم الدولة وأن يتحملها دون أن يقرها أو يعترف بها ، وألاّ يعارض القوة بالقوة ، لأن العنف معناه اعتراف بالقوة ومبدأ الشر » . ولذا فالثائر الذى يستمع إلى تولستوى يُضرب ولا يَضرب ، ويُظلم دون أن يَظلم . لا يطمح إلى القوة ، ولكن القوة لا تزحزحه عن رأيه ، وهو لا يكافح ( الدولة ) ، وإنما ينبذها غير آبه بها ولا مكترث لها لأنه لا ينتمى إليها .

والفرق واضح عند تولستوى بين المقاومة السلبية الدينية ، وبين الكفاح الإيجابى ، فهو يقول : « إننا حين نقابل الثائرين نظن خطأ أنا نلتقى وإياهم فى الرأى ، فكلانا ينادى أن لا دولة ولا ملكية ، ولا ظلم ولا عسف ؛ ولكن هناك فارقاً بين المسيحى المؤمن والثائر السياسى ، فالدولة عند الأول لا وجود لها ، أما الثانى فيفرض قيامها ويعمل على تحطيمها . والملكية عند المؤمن لا وجود لها ، أما الثائر فيفرض وجودها ويعمل على محوها . والناس جميعاً عند المؤمن سواء ، أما الثائر فيلمس الفوارق بين الطبقات ، ويعمل على إزالتها . والثائر يتظاهر بالكفاح ، والمؤمن يبطنه ولا يرفع به صوتاً » ! ويرى الكاتب أن الثورة الدينية إذا التزمت حدود المقاومة السلبية ، كانت أخطر على الدولة من الثورات العنيفة والجمعيات السرية الهدامة . فإنك إن أردت أن تغير نظام العالم ، كان عليك أولاً أن تغير ضمائر الناس ونفوسهم « إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم » . وإنما يرمى تولستوى إلى ثورة باطنية ، ثورة لا تقوم على السلاح ، وإنما على الضمير الذى لا يلين ، والفرد الذى لا يشكو ألماً ولا ظلماً — هى ثورة القلوب لا ثورة السواعد .

وهذه النزعة المعادية تذكرنا برسالة لوثر ( حرية الرجل المسيحى ) ، وهى قوية ولا شك ،

فعّالة ولا ريب . ولا يتبين ضعفها إلا حينما ينتقل تولستوى من هذا النداء إلى تقرير الذات ، إلى نظرية إيجابية فى تأسيس الدولة . وقد أدرك الكاتب أن الإنسان لا يعيش فى فراغ لا مكان له ، ولا يحيا فى جيل بغير زمان ؛ ولا بد لألوف البشر أن تتجمع ، ولمختلف الآراء أن تتقابل . ولا مناص من وضع الحدود والقواعد لحياة مستقرة ، سواء انتهينا بذلك إلى إقامة الدولة أو لم ننته . إنما ينبغى على أى الحالين أن نفصل بين الخير والشر ، و بين الخطأ والصواب . وهنا عند وضع الحدود والقواعد تتوعر السبيل على تولستوى كما توعرت على مئات المفكرين من قبل ، لأن بناء الجماعة أشق من هدمها .

وفى اللحظة التى ينتقل فيها تولستوى من التشخيص إلى العلاج ، فى اللحظة التى لا يكتفى فيها باتهام النظام الاجتماعى الحاضر و إنكاره ، بل يتعدى إلى اقتراح يقدمه لإصلاح الجماعة البشرية — فى هذه اللحظة ترى كيف تغمض آراؤه و كيف تضطرب أفكاره . فهو يستبدل ( الحب ) بهذه ( الدولة ) المستقرة الموحدة ، بما فيها من سلطان وقانون ، وما فيها من قدرة على التنفيذ . الحب عنده هو السبيل الوحيدة لتقريب المصالح المتعارضة ؛ وهى وسيلة غامضة ؛ وعجيب أن تصدر عن رجل بحث فى أعماق النفس البشرية بحثاً لم يسبقه إليه أحد ! ويرى تولستوى أن الهوة العميقة التى تفصل اليوم بين المالكين وغير المالكين ، تزول إذا تنازل الملاك طوعاً من أملاكهم وقلت مطالبهم فى الحياة ؛ ليتنازل الغنى عن ثروته ، والمتعلم عن غروره ، وليخلق الفنان أعماله ليفهمها عامة الناس ، وليعش كل فرد بعمله ، ولا يتقاضى عليه أكثر مما يحتاج لحياة ساذجة بسيطة .

ومجمل الرأى عند تولستوى أن التسوية الاجتماعية ينبغى ألاّ تبدأ من أسفل كما يريد الثائرون حينما ينادون بانتزاع الملك من مالكه بالعنف والقوة ؛ و إنما يجب أن تبدأ من أعلى بتنازل تلقائى من جانب الأثرياء والأغنياء .

وكان تولستوى يعلم حق العلم أن الهبوط إلى مستوى وضيع فى الحياة يهدم كثيراً من مظاهر الثقافة العالية ؛ وكان يخشى ألاّ نأخذ برأيه إشفاقا منّا على صرح هذه الثقافة أن يتقوض ؛ ولذا فقد كتب رسالة فى الفن يحط من شأن كبار الفنانين ، حتى من أمثال شكسبير و بيتهوفن ، لأن منتجاتهم فوق مستوى العامة ، ولا يفيد منها أكثر الناس ؛ ووجه تولستوى

كل همه إلى تحطيم ذلك الحائل القائم بين الغنى والفقير ، والذى لا ينجم عنه إلا كل شر . فاذا سوينا بين الناس فى المطالب والحاجات ارتبطت قلوبهم برباط المودة والائتلاف ، لأن غرائز الشر من حسد و بغض ومنافسة ، لا تجد لها بعد هذا هدفاً تهاجمه وتتجه وجهته . وفى هذه الجماعة الجديدة لا تنشأ الحاجة إلى السلطة الحاكمة أو إلى حمايتها بالعنف والقوة ؛ و إنما يسود العدل إذا لم يعد على وجـه الأرض سيد ومسود ؛ وإذا لم يكن بين الإنسان وأخيه الإنسان غير رابطة الحب والاخاء .

وكانت هذه الرسالة فاتنة جذابة فى بلد كالروسيا بلغ التناقض فيه بين طبقة وطبقة حداً بليغا . وكان نفوذ تولستوى قوياً شديداً ، فرغب كثير من أهـل روسيا فى الأخذ بنظريته الاجتماعية . وحاول بعضهم بالفعل أن ينقل هذا الرأى الجديد من عالم القول إلى عالم العمل بتأسيس مستعمرات لا يكون للملـكية أو العنف فيها أثر . ولـكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، ولم يفلح تولستوى فى إقامة مبدئه الجديد حتى فى بيته و بين أهله وذويه ، وحاول أن يوفق بين حياته الخاصة و بين نظرياته ، فتنازل عن حبه للصيد ، ولم يأكل اللحم إشفاقا على الحيوان ، ولم ينتقل بقطار أو سيارة ، ودفع كل ما درّه عليه قلمه من ربح إلى جمعيات الاحسان . وأخذ يفلح أرضه بنفسه ، وارتدى ثياباً خشنة ، وعمل حذاءه بيديه .

ولـكنه — رغم هـذا — لم يستطع أن يصد تيار المعارضة الشديد ، حتى بين أفراد أسرته وأقربائه وأعزائه . فقد أنكرته زوجه ؛ ولم يرض أبناؤه أن ينشأوا كما ينشأ الفقراء ، والمال لديهم وفير ؛ وظنوا بأبيهم مسًّا أو ضرباً من الجنون . وأخذ الـكتاب والأدباء يعارضون رأيه فى الملـكية ولم يعترف له أحد من معارفه أنه يعيش عيش المسيحى المؤمن . وقد أدرك تولستوى نفسه فى نهاية الأمر — كما يتبين من مذكراته اليومية — أنه فشل فى بث أفـكاره بين الناس ، وأن آراءه لا تصلح للانتشار . ولم يثابر هو نفسه على العيش وفقا لمبدئه . وقد جاءت فى مذكراته هذه العبارة : « أى تولستوى ! هـل أنت تعيش وفقاً لعقيدتك ؟ كلا . إنى لأموت خجلاً من نفسى ، و إنى لآثم أستحق الازدراء » .

ولما بلغ الرجل الثالثة والثمانين أحس بالموت يدنو منه ، ففر من بيته ليلاً ، وطفق يهيم على وجهه حتى مات فى العراء وحيداً مخيَّب الرجاء فى نظراته وآماله .

ولعله من التعسف على الرجل ومن عدم الإنصاف له بعد موته أن نقول إن رأيه فى الاجتماع والدين والسياسة قد انتهى إلى ما انتهت إليه مدينة أفلاطون الفاضلة أو نظام جان جاك روسو الاجتماعى ؛ ولئن كان تولستوى قد ضل السبيل فى بعض رأيه ؛ وفشل بعض الشىء فى بث عقيدته ، فلقد أصاب كل النجاح كأديب فى قصصه ورواياته وتصوير عصره وأبناء جيله . ونحن — فضلا عن هذا — ندين له بالكثير من النظر الاجتماعى . فقد كان له علينا أثر لا ينكر ؛ وليس من المبالغة أن نقول إن أحداً من المفكرين من معاصريه — حتى كارل ماركس أو نيتشه — لم يؤثر فى ملايين البشر كما أثر فيها هذا الرجل . وتستطيع أن تلمس رأيه فى كل فكرة ثائرة تنبت فى رأى أبناء هذا الجيل . ويخطئ بعض قارئيه فهمه فيحسبونه بلشفياً ، والرجل من البلشفية براء ؛ فالبلشفية ترمى إلى سحق من يعاديها ؛ ويرمى هو إلى التوفيق بين الأفراد عن طريق العطف والحب ، والبلشفية تعطى الدولة — وهى شيطان تولستوى — نفوذاً واسعاً على الفرد ، وتركز السلطة ، وتنكر الله ، وتعمل على إثارة الجماهير ؛ وهو ما لم يقل به تولستوى أو يعتقد فيه . ورغم هذا كله تستطيع أن تقول إن أحداً من الثائرين فى الروسيا فى القرن التاسع عشر لم يمهد السبيل ( للينين ) و ( تروتسكى ) كما فعل هذا الرجل عدو الثورات ، الذى طالما نادى بأن التوفيق بين الجماعات شرط ضرورى لإنشاء عالم خير من عالمنا هذا . وقد حرمت السلطة نشر مؤلفاته ، فنسخت بخط اليد و بلغت آلاف القراء ، ودفعت مواطنيه إلى الجرأة فكان — رغم إرادته — أكبر باعث على الثورة الروسية ، كما كان روسو أكبر باعث على الثورة الفرنسية .

ومن العجيب أن تعاليم تولستوى كان لها أثر عكسى على ألوف أخرى من الناس . فبينما ترى الروسيا تأخذ بمبدأ الثورة على الجماعة ، ترى غاندى وأتباعه فى الهند يأخذون عن هذا الرجل مبدأ المقاومة السلبية ، ويلجأ غاندى إلى سلاح تولستوى الذى لا يتلطخ بالدماء ، فيهجر الصناعة الآلية ، ويأخذ الصناعة البيتية ، ويطلب الاستقلال الاقتصادى عن طريق الحد من الحاجة المادية .

***

إن الفكرة الرفيعة لا تتجه وجهة بعينها ، و إنما يسيرها الزمن كما تسير الريح السفينة . و إنما الآراء قوى محركة تنتج الحركة دون أن تعلم إلى أين المسير ، وليس عجيباً إذاً أن تكون الروسيا الثائرة والهند المسالمة من صنع هذا الرجل ؛ فإنك إن أردت نشر السلام ألقيت بين سطور هـذا الـكاتب ما يدعم رأيك و يقوى حجتك ، و إن أردت ثورة نفسية على قدس الدولة وجدت لنفسك غذاء فيما كتب !

إن كل رجـل سياسى أو اجتماعى يستطيع أن يستمد من نقد تولستوى لعصره ثاقب الرأى ونافذ البصيرة ؛ كما يستطيع كل أديب أن يستوحى هـذا الشاعر العظيم ، الذى أنزل بنفسه العذاب كى يفـكر للجميع ، وكى يحارب الظلم بقوة القلم !

كان تولستوى مثالاً يحتذى فى قوله وفعله ، ونال من الشهرة أقصاها ، ولم يحاول أن يستغل نفوذه فى الوصول إلى مناصب الحـكم ، و إنما خصصه للخدمة الإنسانية جميعاً ؛ ولم يخضع كفاحه لخلق عالم جديد إلا لسلطة واحدة على الأرض : هى سلطة الضمير الذى يهتدى إلى الحق و يسلك إليه سواء السبيل .

# اعترافات تولستوى

— ١ —

يقول تولستوى :

« ولدت لأبوين مسيحيين ، ونشأت على العقيدة المسيحية الأرثوذكسية ، وتلقيت تعاليمها فى عهد الطفولة و إبّان الصبا والشباب . ولما بلغت منتصف المرحلة الجامعية فى دراستى — وكنت حينئذ فى الثامنة عشرة من عمرى — لم أعد أعتقد فى أى شىء مما تعلمت فى الصغر .

وما عندى من ذكريات لهذا العهد يدل على أننى لم أكن جاداً فى عقيدتى ، وإنما كنت أركن إلى ما تلقيت من عقائد وما كان يتردد على ألسنة الكبار من حولى . وحتى هذا الركون لم يكن على أساس وطيد .

وأذكر أنى قبل أن أبلغ الحادية عشرة التقيت فى بيتى فى يوم من أيام الأحد بغلام اسمه ڤلاديمير مليوتن ( وقد مات من زمان بعيد ) ، وكان حينئذ طالبا بإحدى المدارس الثانوية ، وصرح لى بأنهم كشفوا بمدرستهم كشفا جديدا . كشفوا أنه ليس هناك ( إله ) وأن كل ما تعلمنا عنه من اختراع المعلمين . وكان ذلك فى عام ١٨٣٨ . وأذكر أن إخوتى الكبار قد اهتموا لهذا النبأ اهتماماً عظيما . وقد دعونى إلى الاشتراك معهم فى الحديث ؛ وأذكر أن جدالاً عنيفاً دار بيننا ، ثم تلقينا النبأ باهتمام عظيم ، وأجمعنا الرأى على أنه جائز يحتمل التصديق .

وأذكر كذلك أن أخى الأكبر دمترى — وكان حينئذ يطلب العلم بالجامعة — قد كرّس نفسه فجأة للدين ، وتحمس له تلك الحماسة الحارة التى كانت من طبيعته . وبدأ يؤدى صلوات الكنيسة جميعاً بغير إخلال ، ويصوم ويحيا حياة خلقية طاهرة . فلم نكفّ جميعا — حتى الكبار منا — عن السخرية منه ، وأطلقنا عليه لسبب لست أعرفه اسم « نوح » .

وأذكر أن موسن بوشكن — أمين جامعة قازان فى ذلك الحين — دعانا مرة إلى الرقص فى بيته ، وأخذ يغرى أخى فى شىء من التهكم ( وكان أخى رافضا للدعوة ) بقوله : إن داود نفسه رقص أمام السفينة . وكنت أعطف على هـذه النكات التى تصدر ممن يكبروننى سنا ، واستخلصت منها أنه من الضرورى للإنسان أن يتعلم أصول الدين وأن يؤدى الصلاة فى الـكنيسة ، ولـكن ليس من الضرورى له أن يفعل ذلك وهو جاد .

وأذكر كذلك أنى قرأت ڤلتير وأنا فى باكورة الصبا ، وأن سخريته لم تصدم مشاعرى ، بل أدخلت على نفسى سروراً عظيما .

وهـذا الانحراف عن العقيدة الدينية الذى أصابنى يصيب كذلك عادة الشباب الذين يبلغون مستوانا فى التعليم . وهو يحدث فى أكثر الأحيان — فيما أظن — على هذه الصورة : يعيش المرء — كما يعيش غيره من الناس — على أسس وقواعد لا تتفق البتة وتعاليم الدين . إن العقائد الدينية لا تلعب دوراً فى الحياة أو فى صلات الناس الاجتماعية ولا يحسب المرء لها حساباً فى حياته الخاصة . فهى لا تتصل بالحياة ولا ترتبط بهـا . فإن صادفتك مرة صادفتك كظاهرة خارجية منفصلة عن الحياة تمام الانفصال . يستحيل عليك أن تحكم على الرجل من حياته وسلوكه إن كان مؤمنا أو غير مؤمن . وإذا كان ثمة خلاف بين الرجل الذى يعترف بإيمانه جهاراً وبين الرجل الذى ينكر الإيمان ، فإن هذا الخلاف ليس فى صالح المؤمن . فإن ممارسة الدين والاعتراف به كان وما يزال شائعاً بين الأغبياء والقساة والمتكبرين . وكثيراً ما تجد المقدرة والأمانة والثقة وكرم الطباع وحسن السلوك بين الـكافرين .

إن المدارس تعلم الصبية أصول الدين وترسلهم إلى الـكنائس ، كما أن موظفى الحـكومة ينبغى لهم أن يقدموا الشهادات التى تدل على صدق إيمانهم . ولـكن الرجل من أبناء طائفتنا الذى أتم تعليمه ولم يلتحق بخدمة الحـكومة يستطيع اليوم أن يعيش عشرة أعوام أو عشرين عاما دون أن يذكر مرة أنه يعيش بين قوم مسيحيين وأنه هو نفسه يُعدّ عضوا فى الـكنيسة الأرثوذكسية ( وكان ذلك أيسر على المرء فيما سلف من الأيام ) .

ولذا فإن العقيدة الدينية التى يعتنقها المرء — فى الوقت الحاضر أو فيما مضى — بمجرد التصديق ، والتى تستند إلى الضغط من خارج ، تتلاشى تدريجاً من تأثير المعرفة والخبرة

بالحياة التى تعارضها ولا تتفق معها . وكثيراً ما يحيا المرء متوهما أنه باقٍ على العقيدة التى تلقاها فى الصغر بغير مساس ، فى حين أنه لم يبق له فى الواقع منها أثر .

قصّ لى مرة ( س ) قصة خروجه على الدين . و ( س ) رجل ذكى صادق . قال إنه وهو فى السادسة والعشرين من عمره خرج مرة للصيد ، وبلغ مكانا استقر به لكى يقضى فيه المساء . وهناك فى ساعة الغروب خرّ راكعاً للصلاة . وتلك عادة احتفظ بها من عهد الطفولة . وكان أخوه — ورفيقه فى الصيد — مستلقيا فوق العشب يرقبه . ولما فرغ ( س ) من صلاته وأخذ يعدّ نفسه لاستقبال الليل ، قال له أخوه : « أفما زلت تفعل ذلك ؟ » .

ولم يتبادلا الحديث بعد ذلك . ولكن من ذلك اليوم امتنع ( س ) عن أداء صلواته كما امتنع عن زيادة الكنائس . ولبث على ذلك ثلاثين عاما . ولم يفعل ذلك لأنه عرف عقائد أخيه واعتنقها . ولم يفعل ذلك لأنه وصل فى نفسه إلى قرار معين . وإنما فعل ذلك لأن كلمة أخيه كانت كغمزة الاصبع للحائط الذى أوشك أن ينهار من ثقله . وقد بينت له كلمة أخيه أن ما كان يحسبه فى نفسه عقيدة ثابتة لم يكن فى حقيقة الأمر إلا شكا مطلقا ، ولذلك فإن الدعوات ورسم علامات الصليب والركوع أثناء الصلاة حركات لا معنى البتة لها . ولما أدرك خلوها من المعنى لم يستطع أن يتابعها .

وهكذا كانت الحال ، ولا تزال — فيما أظن — مع الكثرة الكاثرة من الناس . وأقصد الناس ممن هم فى مستوانا العلمى ، المخلصين مع أنفسهم . ولست أقصد أولئك الذين يتظاهرون بالإيمان ويتخذونه وسيلة لبلوغ مآربهم الدنيوية ( إن أمثال هؤلاء هم أكثر الناس كفرانا . لأن الإيمان إذا كان وسيلة لبلوغ المآرب الدنيوية أبعد ما يكون عن الإيمان الصحيح ) إن أولئك الذين يبلغون مستوانا فى التعليم عندهم من ضوء المعرفة والحياة ما يبدد ذلك الحجاب المصطنع الذى يستر بصائرهم . ومنهم من شهد هذا الحجاب فأزاله ، ومنهم من لم يشهده بعد .

إن العقيدة الدينية التى لُقِّنتها فى الصغر اختفت عندى كما اختفت عند غيرى ، مع هذا الفارق بينى وبينهم : أنى بدأت من سن الخامسة عشرة أقرأ الكتب الفلسفية ، وأنى أحسست بالنفور من تعاليم الدين فى سن مبكرة جدا . ولما بلغت السادسة عشرة امتنعت عن أداء الصلاة وامتنعت عن زيارة الكنيسة كما امتنعت عن الصوم بمحض إرادتى . ولم أصدق

ما تعلمته فى الصغر و إنما اعتقدت فى شىء آخر . ولم يكن بوسعى أن أعبر عما كنت أعتقد فيه ، اعتقدت فى إله ما ، أو على الأصح لم أنكر وجود الله . غير أنى لم أستطع أن أقول ما كنه ذلك الإله . ولم أنكر المسيح أو تعاليمه . ولكنى كذلك لم أستطع أن أقول ما فحوى تلك التعاليم .

والآن إذ أعود بذاكرتى إلى ذلك العهد أرى بجلاء أن عقيدتى — وأقصد العقيدة الحقيقية الفذة التى آمنت بها ، تلك التى كانت إلى جانب غرائزى الحيوانية تحفزنى إلى الحياة — هى الإيمان بضرورة النهوض بنفسى إلى مرتبة الكمال . بيد أنى لم أستطع أن أقول ما كنه ذلك الكمال وما هدفه الذى يرمى إليه . حاولت أن أبلغ الكمال العقلى فدرست كل ما استطعت وكل ما ألقته الحياة فى سبيلى . وحاولت أن أبلغ الكمال فى الإرادة فوضعت القواعد التى أسير على نهجها . وحاولت أن أبلغ الكمال الجثمانى فنميت قواى ورشاقة جسمى بكل أنواع التمرينات البدنية ، وعودت نفسى على الاحتمال والصبر بجميع وسائل الحرمان . وقد حسبت أن فى ذلك كله بلوغ الكمال . وكان بالطبع أول ما بدأت به الكمال الخلقى . ولكنى سرعان ما استبدلت به الكمال المطلق . استبدلت به رغبة فى رفع مستواى لا فى عينىّ ، ولا عند الله ، ولكن فى أعين الآخرين . وسرعان بالتالى ما تحول هذ الجهد إلى رغبة فى أن أكون أقوى من الآخرين أى أن أكون أبعد منهم صيتا ، وأكثر أهمية ، وأوفر مالاً .

— ٢ —

وسأقص عليكم فى يوم من الأيام تاريخ حياتى خلال تلك السنوات العشر من شبابى . وستجدون فيه ما يمس إحساسكم وما يزيدكم علما . ولست أحسب إلا أن عدداً عديداً من الناس قد مرت بهم هذه التجربة . ولقد أردت بكل نفسى أن أكون إنسانا نزّاعا إلى الخير . ولكنى كنت وأنا أبحث عن الخير شابا تعمر العاطفة قلبه ويعيش فى عزلة عن الناس . وكلما حاولت أن أعبر عن هذه الرغبة الخالصة فى نفسى — وهى رغبة طيبة من الناحية الخلقية — قوبلت بالسخرية والازدراء . وكلما استسلمت للعواطف الدنيئة قوبلت بالثناء والتشجيع .

إن الناس يقدسون الطموح وحب السلطان والطمع وحب الشر والكبر والغضب والانتقام . فلما خضعت لهذه الشهوات صرت كغيرى من الرجال وشعرت أنهم عنى راضون . وكنت أسكن مع عمة لى شفيقة . وهى و إن تكن من أطهر الناس ذيلا إلا أنها كانت دائما تقول لى إنه ليس أحب إلى نفسها من أن ينشأ بينى و بين امرأة متزوجة نوع من العلاقات . كانت تقول : « لا يكوّن الشابّ شيء مثل ما يكوّنه القرب من سيدة من بيت كريم » . وكانت عمتى كذلك تتمنى لى السعادة بأن أكون سكرتيراً حربيا لرجل من عظماء الرجال ، وليكن الامبراطور إن أمكن ذلك . ولكن أكبر سعادة لى فى عينها كانت فى الزواج من فتاة ثرية جداً حتى أصبح مالكاً لأكبر عدد ممكن من العبيد .

ولست أستطيع أن أعود بذاكرتى إلى تلك السنوات دون أن أحس بالفزع والمقت وألم النفس الشديد . فلقد قتلت الرجال فى الحروب ، وتحديت الكثيرين إلى المبارزة كى أقضى على حياتهم . وقامرت وخسرت ، واستغللت مجهود الفلاحين ، وحكمت عليهم بمختلف العقوبات ، وعشت عيشة إباحية وخدعت الناس . واقترفت كل الآثام — الكذب والسرقة والزنا بكل ضروبه ، وشرب الخمر ؛ واستخدام العنف والقتل . وقد أثنى الناس على سلوكى فى كل هذا . ويعتبرنى المعاصرون رجلا كريم الخلق بالنسبة إليهم .

وهكذا عشت عشر سنوات .

وفى غضون ذلك شرعت أكتب مدفوعاً بالغرور والطمع والكبر . وفعلت فى كتابتى ما فعلت فى حياتى . فلكى أظفر بالشهرة والمال — ومن أجلهما كنت أكتب — كان لزاما علىّ أن أخفى الخير وأظهر الشر . وهذا ما فعلت . فلكم حاولت فيما كتبت أن أخفى تحت ستار من عدم الاكتراث أو السخرية ذلك النضال القائم بنفسى الذى يحفزنى إلى الخير والذى يعطى لحياتى معنى ومغزى . وقد نجحت فيما كتبت وظفرت بالثناء .

ولما بلغت السادسة والعشرين من عمرى عدت إلى بطرسبرج بعد الحرب . وهناك التقيت بالكتّاب ، فاستقبلونى كواحد منهم وقابلونى بالنفاق . وقبل أن يتوفر لى الوقت للمشاهدة اعتنقت آراء المؤلفين الذين خالطتهم . وهذه الآراء فى الحياة محت محواً تاما كل محاولاتى السابقة فى تهذيب نفسى . فلقد أمدتنى هذه الآراء بنظرية برر ت لى انحلال حياتى .

وهذه هى معتقدات هذه الفئة من الناس — أقصد زملائى فى التأليف — فى الحياة : كانوا يعتقدون أن الحياة فى جملتها تتطور ، وأننا نحن رجال الفكر نلعب أكبر دور فى هذا التطور . وأن الفنانين والشعراء من بين رجال الفكر هم أصحاب النفوذ الأكبر . مهمتنا فى الحياة أن نعلّم الناس . فإن سأل سائل هذا السؤال المطروق « ماذا أعلّم ، وماذا أستطيع أن أعلّم ؟ » أجابوه أن هذا — بناء على نظريتهم — أمر ليس من الضرورى أن يُعرف ، فالفنان والشاعر يعلّم غيره دون أن يشعر بذلك . وكانوا يعدّوننى فنانا وشاعراً من الطراز الأول . فكان من الطبيعى جدا لى أن أعتنق نظريتهم . فكنت كفنان وشاعر أكتب وأعلّم دون أن أدرى أنا نفسى ماذا أعلّم . وكنت من أجل ذلك أتقاضى الأجور ، فأستمتع بشهىّ الطعام وبالمأوى والنساء والمجتمع . وظفرت بالشهرة التى دلّت على أننى كنت أعلّم شيئاً له قيمة كبرى .

وهذه العقيدة فى معنى الشعر وفى تطور الحياة كانت ديناً وكنت أحد المبشرين به . والتبشير به كان محبباً إلى نفسى يدر علىّ مالا وافراً . وعشت على هذه العقيدة دهراً دون أن أشك فى صحتها . ولكنى بدأت فى العام الثانى — وفى العام الثالث خاصة — من هذه الحياة أشك فى نزاهة هذا الدين ، كما بدأت أن أفحص حقائقه . وكان أول ما دعانى إلى الشك أنى بدأت ألحظ أن المبشرين بهذا الدين لم يكونوا جميعا على رأى واحد . فبعضهم يقول : نحن خير المعلمين وأكثرهم نفعا ، فنحن نعلّم المطلوب ، ويعلّم غيرنا الأخطاء . ويقول بعضهم الآخر : كلا ! نحن المعلمون الحقيقيون ، وإنما أنتم الذين تعلمون الخطأ . فهم يتنازعون ويتشاجرون ويتسابّون ويحتالون ويخدع بعضهم بعضا . وكان بيننا كذلك كثيرون لم يعبأوا من أصاب ومن أخطأ ، ولا يهمهم إلا أن يحققوا أطماعهم بهذا الضرب من النشاط الذى نشطناه . وقد اضطرنى كل ذلك إلى الشك فى صحة ما كنا نعتقد فيه .

وما إن بدأت — فوق ذلك — فى الشك فى صحة عقيدة المؤلفين نفسها حتى بدأت كذلك أرقب المبشرين بها عن كثب . واقتنعت أخيراً بأن كل المبشرين بهذا الدين تقريبا — أقصد الكتاب — كانوا قوما لا خلاق لهم ، وأن أكثرهم ذوو شخصيات وضيعة تافهة . وأنهم أشد انحطاطا من أولئك الذين قابلتهم من قبل فى حياتى الحربية المنحلة . غير أنهم

كانوا على ثقة من أنفسهم ، راضين عن أنفسهم . ولا يكون كذلك إلا رجل غاية فى القداسة ، أو رجل لا يعرف ما هى القداسة . فثارت نفسى ضد هذه الطائفة من الناس ، وثرت ضد نفسى ، وأدركت أن تلك العقيدة كانت خداعاً .

ومن عجب أنى أدركت هذا الخداع ونبذته ، ولكنى لم أنبذ ذلك اللقب الذى خلعته علىّ هذه الفئة من الناس ، وأقصد لقب الفنان والشاعر والمعلم . و بلغت بى السذاجة أنى تصورت أنى شاعر وفنان وأنى أستطيع أن أعلّم الناس جميعا دون أن أعرف ماذا أعلّم . وسلكت مسلكاً يتفق وهذا التصور .

وأكسبتنى عشرتى لهذه الطائفة رذيلة جديدة : وتلك أنى زدت استكباراً إلى درجة الشذوذ ، واستولت علىّ عقيدة جنونية أن مهمتى أن أعلّم الناس دون أن أعرف ماذا أعلّم .

و إنى لأحزن وأفزع وأسخر من نفسى ، بل إنى ليثور فى نفسى إحساس يشبه كل الشبه ذلك الإحساس الذى يستولى على المرء فى مستشفى المجانين ، حينما أعود بذاكرتى إلى ذلك العهد ، وأذكر حالتى العقلية وحالة أولئك الناس ( بالرغم من أن ألوفاً من هذا الطراز يعيشون بيننا اليوم ) .

كنا إذن جميعا فى ذلك الحين مقتنعين بضرورة الخطابة والكتابة ، و بضرورة إخراج الكتب بأسرع ما يمكن و بأكثر ما يمكن . وأن ذلك كله مطلوب لصالح البشر . وقد ألّفتْ الألوفُ منا الكتب وطبعوها لكى يعلّموا الناس ، برغم ما كان بيننا من خلاف و برغم ما كنا نتبادل من ألفاظ السباب . ولم ندرك أننا لم نعرف شيئا وأننا لا نستطيع الإجابة عن أبسط سؤال فى الحياة : ما الخير وما الشر ؟ ولكنا جميعا — برغم ذلك — صممنا آذاننا عما يقوله بعضنا ، وتكلمنا فى وقت واحد ، حينما نؤيد ما يقوله الآخرون ونثنى عليهم لكى نظفر منهم بالثناء والتأييد ، وحينما متغاضبين — كأننا فى مستشفى من مستشفيات المجانين .

وألوف العمال يبذلون أقصى الجهد ، ويعملون ليلا ونهاراً ، يرصون الحروف ويطبعون ملايين الكلمات التى يحملها البريد إلى أنحاء الروسيا جميعا ، ونحن لا نكف عن التعليم ، ولا يتسع لنا الوقت بأى حال من الأحوال لأن نعلّم الناس ما يكفيهم . ولا نفتأ نغضب لأننا لا نلقى من الناس ما يكفى من التنبه والالتفات .

كان ذلك أمراً عجباً ، ولكنه اليوم أمر مفهوم . ذلك أننا كنا فى أعماق نفوسنا نحب أن نظفر من المال والثناء بقدر ما نستطيع . ولكى نحقق هذا الغرض لم نستطع إلا أن نؤلف الكتب ونكتب فى الصحف . وهذا ما فعلنا ولكننا لكى نقوم بهذا العمل الذى ليس من ورائه جدوى ولكى نشعر فى الوقت نفسه بأننا قوم لهم أهميتهم فى المجتمع كان لا بد لنا من نظرية تبرر ما نبذل من جهد . ولذلك فقد صغنا هذه النظرية فيما بيننا ، قلنا « إن كل ما هو كائن معقول ، وإن كل كائن يتطور . وأن الكائنات جميعا تتطور عن طريق الثقافة . والثقافة تقاس بمقدار انتشار الكتب والصحف . ونحن نحصل على المال ونظفر باحترام الناس لأننا نؤلف الكتب ونحرر الصحف . وإذن فنحن أنفع الناس وخيرهم جميعا » ولا بأس من هذه النظرية لو اتفقنا فى الرأى . ولكن أحدنا يعبر عن فكرة ما ويعبر الآخر عن فكرة تعارضها كل المعارضة ، وإذن فأمرنا يحتاج إلى التدبر . بيد أننا أهملنا ذلك . فالناس يدفعون لنا المال ، ومن ينضم إلينا فى الرأى يكيل لنا الثناء . ولذا فقد كان كل منا يبرر موقفه .

ويتضح لى الآن بجلاء أننا كنا فى حالة لا تختلف عن مستشفى المجانين فى شىء . ولكنى فى ذلك الحين لم تساورنى إلا ريبة غامضة . وكنت أحسب الناس جميعا مجانين ، وليس فيهم عاقل سواى ، شأنى فى ذلك شأن كل مجنون .

— ٣ —

وهكذا عشت ست سنوات أخرى مسترسلا فى هذا الجنون حتى تزوجت . وفى خلال تلك الفترة رحلت إلى الخارج . وقد قوّت الحياة فى أوروبا[1] وتعرّفى إلى القادة ورجال العلم فيها يقينى — الذى آمنت به — بضرورة الجهاد فى سبيل الكمال . فقد وجدت أن هؤلاء الرجال يعتنقون هذه العقيدة عينها . وقد اتخذت هذه العقيدة فى نفسى الصورة العادية التى تتشكل بها فى أذهان الكثرة الغالبة من المتعلمين فى عصرنا . كانوا يعبرون عنها بكلمة « التقدم » وقد بدا لى حينئذ أن لهذه الكلمة معنى . ولم أدرك بعد أنى — وقد أرّق جنبىّ

(١) يميز الروسيون عادة بين أوربا وروسيا .

هذا السؤال : ما هى أحسن حياة أحياها ! وهو السؤال الذى يوجهه كل حى — لم أدرك أنى حين أجيب عن هذا السؤال بقولى « عِشْ مسايراً التقدم » إنما أنا كالرجل فى السفينة يدفعها الموج والريح إذ يجيب عن هذا السؤال « إلى أين ندفع الفلك » — وهو السؤال الوحيد الهام الذى يشغله — بقوله « إن السفينة تسير بنا إلى مكان ما »

ولم ألحظ ذلك حينئذ : إنما كنت بين الحين والآخر — وبدافع الغريزة لا بدافع العقل — أثور على هذه الخرافة الشائعة فى ذلك العصر ، وهى الخرافة التى يُخفى بها الناس عن أنفسهم عجزهم عن فهم الحياة ... ومثال ذلك أنى إبّان إقامتى فى باريس شهدت منظر تنفيذ الإعدام ، فتبيّن لى مما شهدت أن عقيدتى الخرافية فى التقدم لا تقوم على أساس ثابت . رأيت الرأس ينفصل عن الجسد ، ورأيتهما يُلقى بهما معاً فى صندوق فأدركت بكل كيانى — لا بعقلى — أن كل نظرياتنا عن التقدم فى عصرنا لا تبرر هذه الفعلة الشنعاء . كما أدركت أن هذا العمل شىء لا ضرورة منه حتى إن رآه ضروريا كل إنسان من بدء الخليقة وبرره بأية نظرية من النظريات . وإذن فالحَكَم الذى يفصل بين الخير والشر ليس ما يقول الناس وما يعملون ، وليس عقيدتهم فى التقدم ، إنما هو قلبى وهو أنا . وقد كان موت أخى مثالاً آخر يثبت أن العقيدة الخرافية فى التقدم لا تكفى هاديا لنا فى الحياة . كان عاقلا ، طيبا ، رزينا . ثم أصابه المرض وهو لا يزال فى ريعان الشباب ، وظل يعانى السقام عاماً كاملا . ثم مات ميتة أليمة دون أن يفهم لماذا كان يعيش ، بل دون أن يفهم لماذا لا بد له أن يموت ولم يجد — ولم أجد مثله — نظرية من النظريات تجيب عن هذه الأسئلة خلال موته البطىء الأليم . ولم تكن هذه سوى أمثلة نادرة من الشك ، ولقد واصلت حياتى فعلا معلنا إيمانى فى التقدم . وكان ينبغى لى فى ذلك الحين أن أصوغ عقيدتى فى هذه العبارة « كل شىء يتطور ، وأنا أتطور معه : أما لماذا أتطور مع كل شىء فسوف أدركه فى يوم من الأيام » .

وعند عودتى من الخارج استقر بى المقام فى الريف ، وحدث أنى شغلت نفسى بالمدارس الريفية وكان هذا العمل يلائم ذوقى بنوع خاص ، لأنه لم يتطلب منى أن أواجه المغالطة التى اتضحت لى ومَثُلت أمام ناظرىّ عند ما حاولت تعليم الناس عن طريق الأدب . وكنت الآن كذلك أعمل باسم « التقدم » ، ولكنى بدأت أنظر إلى نظرية التقدم نظرة نقدية .

قلت لنفسى « إن التقدم فى بعض نواحى تطوره قد سار سيراً خاطئاً . والمرء لا بد له مع أطفال الفلاحين السذّج أن يعمل بروح الحرية المطلقة ، فيمكّنهم من اختيار طريق التقدم الذى يحبون » . وفى الواقع كنت دائما أدور حول مشكلة واحدة لا تُحل . وتلك هى : كيف يعلّم المرء دون أن يعلم ماذا يعلّم . لقد أدركت أثناء اشتغالى بالدوائر العليا للنشاط الأدبى أن المرء لا يستطيع أن يعلّم دون أن يعلم ما ذا يعلّم . لأنى رأيت الناس جميعا يعلّمون أشياء مختلفة ، ويتنازعون بين أنفسهم فلا يفلحون إلا فى إخفاء جهلهم بعضهم من بعض . ولكنى هنا مع أبناء الفلاحين فكرت فى تحاشى هذه الصعوبة بأن جعلتهم يتعلمون ما يحبون . وإنى لأسخر الآن من نفسى حين أذكر كيف كنت أتعثر وأنا أحاول أن أشبع رغبتى فى تعليم الناس فى حين أنى فى أعماق نفسى كنت أعرف جيدا أنى لا أستطيع أن أعلّم غيرى شيئا مما يحتاجه لأنى لم أكن أعرف ما يحتاج . وبعد أن قضيت عاما فى العمل المدرسىّ رحلت إلى الخارج مرة أخرى لأكتشف كيف أعلّم الآخرين دون أن أعلم شيئا .

وبدا لى أنى تعلمت هذا فى الخارج . وفى عام تحرير الفلاحين ( سنة ١٨٦١ ) عدت إلى روسيا مسلحا بكل هذه الحكمة . ولما أصبحت حَكَماً [1] بدأت أعلّم الفلاحين غير المتعلمين فى المدارس ، كما أعلّم الطبقة المتعلمة عن طريق مجلة نشرتها حينذاك . وبدا لى كأن الأمور تسير على ما يرام ، غير أنى أحسست أنى لست سليم العقل ، وأن الأمور لا يمكن أن تستمر طويلا على هذا المنوال . وكدت أبلغ من اليأس ما بلغت بعد ذلك بخمسة عشر عاما ، لولا أن جانبا من جوانب الحياة بقى غامضا لم أتكشفه بعد ، وتعشمت فيه السعادة . وذلك هو الزواج .

وبقيت عاما كاملا أشتغل بالتحكيم وبالمدارس والمجلة . وبلغ منى الإنهاك مبلغه — نتيجة لاضطرابى العقلى بصفة خاصة — وكنت كَحَكَمٍ أكافح كفاحا شديداً . ونتيجة نشاطى فى المدارس غامضة مظلمة . ومجهودى فى المجلة كريه ممقوت ( وكنت من وراء كل ذلك أرمى إلى غرض واحد : وذلك أن أعلم الناس جميعا ، وأن أخفى أنى لم أعرف ماذا أعلّم ) أنهكنى هذا الجهد حتى أصابتنى العلة فى عقلى أكثر مما أصابتنى فى جسدى ، فنبذت

---

(١) الحكم فى الروسيا من يُصلح بين الفلاحين وأصحاب الأراضى .

كل شيء ، وفررت إلى أهل بشكير فى مراعيهم ، كى أستنشق الهواء العليل ، وأحتسى شرابهم ( وهو شراب مخمّر مجهز من لبن الفرس ) وكى أحيا حياة حيوانية بحتة .

وتزوجت بعد عودتى من بشكير . وقد صرفتنى الظروف الجديدة للحياة العائلية السعيدة تماما عن كل بحث عن المعنى العام للحياة . وتركزت حياتى كلها فى ذلك الحين فى أسرتى وزوجتى وأطفالى — ومن ثم تركزت فى عنايتى بالتزود من وسائل العيش . وشغلنى جهدى لمجرد تهيئة أنسب الظروف الممكنة لحياتى وحياة أسرتى عن الجهاد فى سبيل كمال النفس الذى استبدلت به بعد فترة الجهاد فى سبيل الكمال عامة — وهو الجهاد فى سبيل « التقدم » .

وهكذا انقضت خمس عشرة سنة أخرى .

وبرغم أنى أصبحت أنظر إلى التأليف كأنه عديم الأهمية ثابرت على الكتابة خلال هذه الأعوام الخمسة عشر . وقد ذقت من قبل الإغراء بالتأليف : وهو الإغراء بالجزاء المالى العظيم والثناء على ذلك العمل التافه . فكرست نفسى له كوسيلة لرفع مستوى المادى والقضاء فى نفسى على كل سؤال ينشأ عن معنى حياتى الخاصة أو عن معنى الحياة عامة .

فواصلت الكتابة أبث بين السطور ما كنت أعتبره الأمر الوحيد الصادق : وهو أن يحيا المرء لكى يظفر بأكثر ما يستطيع لنفسه ولأسرته .

هكذا عشت . ولكن منذ خمس سنوات حدث لى أمر عجيب جدا . كانت تمر بى فى مبدأ الأمر لحظات من الحيرة والارتباك فى الحياة ، كأنى لم أعرف كيف أعيش أو ماذا أعمل . وأصابنى الخور والاكتئاب . ثم انقشعت هذه السحابة المظلمة ، وواصلت العيش كما كنت أفعل من قبل . ثم عاودتنى لحظات الحيرة أكثر من ذى قبل . وكانت تتخذ دائما صورة واحدة ، وأرق جنبىّ هذا السؤال : لماذا كل هذا ؟ وإلامَ يؤدى بنا ؟

وبدا لى أول الأمر أن هذا السؤال وما يشبهه نابٍ لا يؤدى إلى غرض . وظننت الأمر جليا واضحا ، وأنى إن أردت أن أجد للمشكلة حلا فإن ذلك لا يكلفنى جهداً كبيراً . إلاّ أن الوقت لم يتوفر لى فى تلك اللحظة الراهنة . وليس أيسر لى من أن أجد لسؤالى جواباً إن أنا أردت ذلك . وأخذت هذه الأسئلة تخطر لى فى فترات متقاربة ، وألحّت علىّ إلحاحاً بحيث لم يعد لى مندوحة عن الإجابة عنها . وأضحت كقطرات المداد تسقط فى مكان واحد فتتجمع حتى تصبح بقعة واحدة سوداء .

وحدث لى ما يحدث لكل من يقض مضجعه مرض باطنى قاتل . تبدو على المريض أولا أعراض طفيفة من التوعك لا يعيرها التفاتا . ثم يتكرر ظهور هذه الأعراض حتى تصبح فترة واحدة متصلة من العناء والألم . ويشتد الألم ، وقبل أن يستطيع العليل أن يلتفت حواليه يجد أن ما كان يحسبه توعكا طفيفا قد بات لديه أهم شىء فى الحياة . أنه الموت !

ذلك ما حدث لى . وأدركت أنه لم يكن توعكا طارئا ، وإنما هو أمر جلل . كما أدركت أنه لا مناص من الإجابة عن الأسئلة التى ترد على خاطرى ما دامت لا تنى عن الإلحاح . وحاولت بالفعل أن أجيب عنها ، وبدت لى سخيفة ساذجة صبيانية . وما كدت ألمسها وأحاول الإجابة عنها حتى اقتنعت فى الحال ( أولا ) بأنها ليست صبيانية سخيفة . إنما هى أهم مسائل الحياة وأبعدها غوراً و ( ثانيا ) بأنى مهما حاولت لن أجد لها حلا . وقبل أن أشغل نفسى بضيعة « سمارا » أو بتربية ابنى أو بتأليف كتاب ، كان لا بد لى أن أعرف لماذا أفعل ذلك . وما دمت لا أدرك السبب لم أستطع أن أفعل شيئا ، بل ولم أستطع أن أعيش . فإن انصرفت إلى إدارة ضيعتى — الأمر الذى شغلنى كثيراً فى ذلك الحين — قفز إلى ذهنى فى الحال هذا السؤال « نعم سيكون لى ستة آلاف دزياتنا [1] من الأرض فى حكومة « سمارا » ، وثلاثة آلاف جواد . ولكن ماذا بعد هذا ؟ » . . . وتبلبلت خواطرى ، ولم أدر فيم أفكر . وإن فكرت فى الخطة التى أسير عليها فى تربية أبنائى قلت لنفسى « ولكن لماذا ؟ » . وإن فكرت فى طريقة للترفيه عن الفلاحين ، سألت نفسى فى الحال « وماذا يهمنى من ذلك ؟ » . وإن فكرت فى الشهرة التى تجلبها لى مؤلفاتى حدثت نفسى قائلا : « حسنا . إنك ستصبح أبعد صيتا من (جوجول) أو (بوشكن) أو (شكسبير) أو (موليير) أو أرفع ذكراً من كتّاب العالم طرًّا — ولكن أى طائل لك من وراء ذلك ؟ » ولم أستطع البتة أن أجد لذلك جوابا . ولم تمهلنى الأسئلة ، وكان لا بد لى من الإجابة عنها توا . وإن لم أجب عنها استحالت علىّ الحياة . ولكنى لم أجد جوابا .

وأحسست أن ما كنت أستند إليه قد انهار ، وأنى لم أعد أجد لى عمادا . إن ما عشت من أجله لم يعد له وجود ، ولم يبق لى فى الحياة غرض .

---

(١) تبلغ مساحة الدزياتنا نحواً من ٢½ فدانا .

— ٤ —

آلت حياتى إذن إلى الركون . فكنت أتنفس وآكل وأشرب وأنام ، ولم يكن لى بد من ذلك . ولكن لم يكن للحياة عندى وجود ، لأنى لم تكن لدىّ رغبات أستطيع أن أعتبر تحقيقها أمراً معقولا . إن رغبت فى شىء ، أدركت سلفاً أنى سواء أشبعت رغبتى أم لم أشبعها لن أظفر من ورائها بطائل . ولو أن جنّية هبطت إلىّ وتطوّعت بتحقيق رغباتى لما عرفت ماذا أطلب . وإن كنت فى لحظات النشوة أحس بشىء إن لم يكن رغبة فهو عادة خلّفتها الرغبات السابقة ، فإنى فى لحظات الصحو أدرك أن هذه الرغبة وهم باطل وأن ليس لى فى الواقع ما أشتهيه . بل إنى لم أرغب حتى فى معرفة الحقيقة لأنى أدركت ما تنطوى عليه . وكنت أشبه شىء برجل أمعن فى مسيره حتى بلغ حافة جبل شديد الانحدار فرأى بجلاء أنه لم يعد أمامه غير الهلاك . وكان يستحيل علىّ أن أقف ، ويستحيل علىّ أن أتقهقر ، ويستحيل علىّ أن أغمض عينىّ ، أو أن أغض الطرف عن هذه الحقيقة : وهى أنه لم يبق أمامى سوى الألم والموت المحقق — وذلك هو الهلاك المطلق .

كنت إذن رجلا سليم الجسم موفور الثراء ، ومع ذلك أحسست أنى لا أستطيع مواصلة العيش . ودفعتنى قوة لا تقاوم إلى أن أخلّص نفسى من الحياة بطريقة ما . ولا أستطيع أن أقول إنى « رغبت » فى الانتحار . ولكن القوة التى كانت تجذبنى بعيداً عن الحياة كانت أقوى وأعظم وأبعد مدى من أية رغبة أخرى . وهى شبيهة بقوة الجهاد السابق فى سبيل الحياة ، غير أنها تسير فى اتجاه مضاد . جذبتنى كل قوتى بعيداً عن الحياة . وتواردت على ذهنى خواطر الموت بصورة طبيعية كما تواردت على خاطرى من قبل الأفكار المختلفة عن كيفية إصلاح حياتى . وكانت هذه الخواطر الجديدة شديدة الإغراء حتى كان لزاما علىّ أن أكون لبقا مع نفسى خشية أن أتسرع فى إخراجها إلى حيز التنفيذ . ولم أشأ أن أتعجل ، لأنى أردت أن أستخدم كل جهد لحل المشكلة ، وقلت لنفسى « إن لم أستطع توضيح الأمور فسوف يكون لدىّ دائما متسع من الوقت » وفى ذلك الحين — وأنا رجل حبانى الحظ السعيد — أخفيت عن نفسى حبلاً خشية أن أشنق نفسى به على حامل وسط غرفتى كنت أخلع عليه ملابسى وحيدا كل مساء . وامتنعت عن الخروج للصيد بالبندقية خشية هذه

الطريقة اليسيرة للقضاء على حياتى . ولم أعرف أنا نفسى ماذا أريد . كنت أخشى الحياة ، وأرغب فى الفرار منها . ومع ذلك كنت أرجو من ورائها شيئا ما .

وحلّ بى كل هـذا فى وقت كان يحوطنى فيه من كل جانب ما يعتبره النـاس الحظ الكامل السعيد . فلم أبلغ بعدُ الخمسين ، وكانت لى زوجة طيبة تحبنى وأحبها ، وأطفال طيبون ، وضيعة واسعة تتحسن وتتسع رقعتها دون أن أبذل فيها جهداً كبيراً من جانبى . وكان أقاربى ومعارفى يحترموننى أكثر من أى وقت سبق . وأطرى علىّ الناس ، وكنت أستطيع — دون أن أخدع نفسى كثيراً — أن أعتبر اسمى ذائع الصيت . ولم أكن البتة مجنونا أو مريض العقل ، بل على العكس من ذلك كنت أتمتـع بقوة ذهنية وبدنية قلما صادفتها بين أضرابى من الرجال . فـكنت أستطيع من الناحية البدنية أن أجارى الفلاحين وهم يحصدون الزرع . وكنت أستطيع من الناحية العقلية أن أعمل ثمانى أو عشر ساعات متواصلات دون أن أشكو وخيم العواقب من هذا الإجهاد . وانتهيت وأنا فى هذا الموقف إلى أنى لا أستطيع العيش ، ولما كنت أخشى الموت كان لا بد لى أن أمكر مع نفسى كى أتجنب الانتحار .

وتبدّت لى حالتى العقلية فى هذه الصورة : ليست حياتى سوى مهزلة سخيفة يمثلها معى شخص آخر ، حاقداً علىّ كائداً لى . ومع أنى لم أعترف « بشخص ما » خلقنى فإن هذه الصورة — وهى أن شخصا ما يمثل معى مهزلة شريرة سخيفة بوضعه إيّاى فى هذه الدنيا — هى التى كانت تعبر عما فى نفسى تعبيراً طبيعيا .

وبدا لى — بغير قصد — أن هنـاك فى مكان ما شخصا يلهو بمشاهدة الطريقة التى عشت بها ثلاثين أو أربعين عاما : وأنا أتعلم وأتطور وأبلغ رشدى جسماً وعقلا ؛ كما يلهو بمشاهدتى — وقد بلغت الرشد العقلى فصعدت إلى قمة الحيـاة حتى انبسطت أمامى جميعها ، ووقفت فوق تلك القمة كالأبله أرى بجلاء أن الحياة فارغة لا شىء فيها ، ولم يكن ولن يكون فيها شىء ما . وقد سره بالفعل مرآى ...

ولم أدر إن كان ذلك « الشخص » الذى يسخر منى موجوداً أو غير موجود . ولم أستطع أن أرى معنى معقولا لأى عمل منفرد من أعمالى ، أو لحياتى بأسرها . وإنما أدهشنى أنى

استطعت أن أتجنب فهم ذلك من بادئ الأمر — وقد عرفه الناس أجمعون من زمان بعيد . واليوم أو غداً يحل المرض والموت بى أو بمن أحب ( وقد حلاّ بالفعل ) . ولا يبقى إلا النتن والدود . وسوف تتردى فى وهدة النسيان — إن عاجلا أو آجلا — شئونى جميعا مهما تكن . وسوف لا يكون لى وجود . وإذن فلماذا أواصل بذل المجهود ؟ . . . وكيف لا يستطيع المرء أن يرى هذه الحقيقة ؟ وكيف يواصل العيش ؟ إن هذا لأمر عجب ! إن المرء لا يستطيع أن يحيا إلا وهو تملى بنشوة الحياة . فإذا ما صحا استحال عليه ألا يرى أن الأمر كله خداع فى خداع ! هـذا كل ما فى الأمر ، وليس فيه ما يتسلى به المرء أو يلهو . والحياة كلها سخف وقسوة .

روى فى الأساطير الشرقية من زمان بعيد أن وحشا هائجا أدرك رجلا مسافراً فى البيداء . واستطاع المسافر أن يفر من الوحش ولـكنه وقع فى بئر جافة ، ورأى فى أسـفل البئر أفعى فتحت فـكيها لتلتهمه . ولم يجرؤ المسكين أن يخرج من البئر خشية أن ينقض عليه الوحش الـكاسر . ولم يجرؤ أن يقفز إلى قاع البئر خشية أن تلتهمه الأفعى ، فأمسك بغصن نما فى شق فى جدران البئر وتعلق به . وكلّت يداه ، وأحس أن لا بد له من أن يستسلم عاجلا إلى الهلاك الذى ينتظره فى أسفل البئر أو أعلاها ، ولـكنه ما فتئ يتعلق بالغصن . ثم رأى فأرين ، أحدهما أبيض والآخر أسود ، يدوران بانتظام حول ساق الغصن الذى تعلق به ويقرضانه قرضا . ولا بد للغصن من أن ينكسر بعد فترة قصيرة فيسقط بين فـكّى الأفعى . رأى المسافر ذلك وأدرك أن لا مناص له من الهلاك . وتلفت حواليه وهو لا يزال متعلقا بالغصن فرأى بضع قطرات من العسل فوق أوراق الغصن ، فمد إليها لسانه ليلعقها . وهكذا تعلقتُ بغصن الحياة وأنا أعلم أن أفعى الموت تنتظرنى ولا مفر منها ، تتأهب لتمزقنى إربا إربا ، ولم أستطع أن أفهم لماذا وقعت فى مثل هذا العذاب . وحاولت أن ألعق العسل الذى كنت أتعزى به من قبل ، ولـكن العسل لم يعد يمتعنى ، والفأران الأبيض والأسود — وهما الليل والنهار — يقرضان الغصن الذى أتعلق به . وكنت أرى الأفعى بوضوح وجلاء ، ولـكن العسـل لم يعد حلو المذاق : ولم أرَ سوى الأفعى التى لم يكن منها مناص والفأرين ، ولم أستطع أن أبعد عنها ناظرىّ . وليست هذه بالأسطورة ، ولـكنها الحقيقة الواقعة التى لا حل لها والتى يدركها كل إنسان .

ولم تعد تخدعنى مسرات الحياة الموهومة التى كانت فيما سلف تخفف من فزعى من الأفعى . وكم قيل لى « إنك لا تستطيع أن تدرك معنى الحياة ، فلا تفكر فيها ، ويكفيك أن تعيش » ولكن ذلك القول لم يجدنى فتيلا ، ولم أستطع أن أحيا دون أن أدرك معنى الحياة كما فعلت من قبل أمداً طويلا . ولم يسعنى الآن إلا أن أرى الليل والنهار يتعاقبان ويسيران بى نحو الموت . هذا كل ما أراه ، لأن ذلك وحده هو الحق ، وكل ما عداه باطل .

ولم أعد أجد حلاوة فى قطرتى العسل اللتين حولتا عينىّ عن الحقيقة المرة أكثر من أى شىء آخر : وهما حبى لأسرتى وحبى للكتابة — أو للفن كما كنت أسميها .

وفكرت فى « الأسرة » وقلت لنفسى إن أسرتى — زوجتى وأطفالى — هم كذلك من البشر ، وهم فى نفس الموضع الذى أنا فيه . ولا بد لهم من أحد أمرين : إما أن يعيشوا فى أكذوبة أو يروا الحقيقة المرة . لماذا يعيشون ؛ ولماذا ينبغى لى أن أحبهم وأن أرعاهم وأربيهم وأراقبهم ؟ ألكى يصلوا إلى هذا اليأس الذى أحس به أو يكونوا أغبياء ! ولما كنت أحبهم لم أستطع أن أخفى الحقيقة عنهم : وكل خطوة نخطوها فى سبيل المعرفة تؤدى إلى إدراك الحقيقة ؛ والحقيقة هى الموت .

ثم فكرت فى الفن والشعر . وكانت نفسى — تحت تأثير النجاح والثناء الذى ظفرت به — قد اطمأنت كثيرا إلى أن المرء يستطيع أن يمارس الفن رغم اقتراب الموت — ذلك الموت الذى يهلك كل شىء حتى مؤلفاتى وذكراها — ولكنى سرعان ما أدركت أن ذلك كذلك خداع ، واتضح لى أن الفن زينة للحياة ومما يغرى بها . بيد أن الحياة فقدت جاذبيتها عندى ، وإذن فكيف أستطيع أن أجتذب الآخرين ؟ ولما كنت فيما مضى لا أحيا حياتى الخاصة . وإنما أحمل على أمواج حياة أخرى — ولما كنت كذلك أعتقد أن للحياة معنى ، وإن كنت لا أستطيع التعبير عنه — فإن انعكاس الحياة فى الشعر والفن بكل ضروبه كان يدخل السرور إلى قلبى . فكان يسرنى أن أنظر إلى الحياة فى مرآة الفن . ولكنى لما بدأت أبحث عن معنى الحياة ، وأحسست بالضرورة إلى أن أحيا حياتى الخاصة ، أصبحت تلك المرآة بالنسبة إلىّ غير ضرورية ، زائدة عن الحاجة ، بل باتت شيئا يدعو إلى السخرية ويبعث على الألم . ولم أعد أستطيع أن اهدئ نفسى بما أرى فى المرآة — وذلك هو أن موقفى سخيف

يدفع إلى اليأس . كنت أستمتع بما أشاهد فى المرآة حينما كنت أعتقد فى أعماق نفسى أن لحياتى معنى . حينئذ كان يسرنى ما يعتور الحياة من أسباب اللهو والمآسى وما يمازجها من شعور وجمال وفزع . ولكنى — لما أدركت أن الحياة مفزعة خلو من المعنى — لم تعد تسرنى الصور التى تنعكس فى المرآة . لم تعد حلاوة الشهد عذبة المذاق وأنا أشهد الأفعى وأشهد الفيران تقضم عمادى وسندى .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد . فلو أنى أدركت أن الحياة تخلو من المعنى واكتفيت بهذا لاحتملت الحياة صابراً وعلمت أن هذا هو نصيبى منها . ولكنى لم أقنع بذلك . ولو أنى كنت كالرجل الذى يعيش فى الغابة ويعلم أن ليس منها مخرج لاستطعت أن أعيش . ولكنى كنت كرجل ضل فى الغابة ، فلما فزع لضلاله انطلق هنا وهناك محاولاً أن يجد الطريق إلى الخلاص . وهو يعلم أن كل خطوة يخطوها تزيده ارتباكا واضطرابا . ولكنه مع ذلك لا يسعه إلا أن يتخبط فى المسير .

حقا لقد كان الأمر يدعو إلى الهلع الشديد . ولكى أخلّص نفسى من هذا الفزع أردت أن أقتل نفسى . كنت أكابد الفزع مما ينتظرنى — وكنت أعلم أن ذلك الفزع أشد هولاً مما كنت فيه . غير أنى — مع هذا — لم أستطع أن أنتظر النهاية صابراً . وحاولت أن أقنع نفسى أنه إذا انقطع فى قلبى شريان ، أو إذا انفجر شىء فى جوفى ، أو إذا حدث مايشبه هذا ، فإن حياتى سوف تنتهى على أية حال . ولكنى — برغم ذلك — لم أستطع أن أصبر حتى هذه النهاية الطبيعية . وكان فزع الظلام شديدا جداً ، وأحببت أن أحرر نفسى منه بأسرع ما استطعت شنقا أو رميا بالرصاص . هذا هو الشعور الذى جذبنى بشدة نحو الانتحار .

— ٥ —

وكررت لنفسى هذه العبارة « ولكنى ربما سهوت عن شىء أو أسأت الفهم ، إذ لا يمكن أن تكون هذه الحالة من اليأس من طبيعة الإنسان ! » وأخذت أتلمس حل هذه المشاكل جميعا فى كل فروع المعرفة التى اكتسبها الإنسان . وظللت طويلا أكد فى البحث ، لا مدفوعا بمجرد الرغبة الهينة فى التطلع والمعرفة ، أو بشىء من عدم الاكتراث . وإنما كنت

دائب البحث مصرا عليه . لا أنى عنه صباحا ولا مساء . وكنت كالرجل بين فكّى الموت يبحث عن النجاة — غير أنى لم أعد بطائل .

بحثت فى كل العلوم . ولكنى لم أظفر بما أردت ، بل اقتنعت بأن كل من كان مثلى يبحث فى المعارف الإنسانية عن معنى الحياة لا يجد مثلى شيئا . لم أظفر بشىء ، ولم يكن هذا كل ما فى الأمر . ولكنى أيقنت يقينا لا شك فيه أن الأمر الذى دفعنى إلى اليأس — وأقصد خلو الحياة من المعنى — هو ذاته الشىء الوحيد الذى لا يعتريه شك والذى يستطيع أن يعرفه الإنسان .

بحثت فى كل مكان . وحيث أنى قضيت حياتى فى العلم ، وحيث أنى كنت كذلك شديد الصلة بعالم البحث العلمى ، فقد تيسر لى أن أتصل بالعلماء والباحثين فى كل فروع المعرفة . وقد أطلعونى — راغبين — على كل معارفهم ، لا فى الكتب وحدها ولكن فى أحاديثهم كذلك حتى كان بين يدىّ كل ما يقوله العلم فى هذه المشكلة الحيوية .

وبقيت طويلا لا أستطيع أن أصدق أن العلم لا يجيب عن مشكلة الحياة بأكثر مما يقدّم لنا فعلا . وبدا لى من زمان بعيد — حينما رأيت صفة الجد والأهمية التى يعلن بها العلم نتائجه ، وهى نتائج لا علاقة لها البتة بمشاكل الحياة الإنسانية الحقيقية — بدا لى أن هناك شيئا لست أفهمه . لقد طال إحساسى بالجبن أمام العلم ، وبدا لى أن انعدام التوافق بين ما يجيب به وما أسأل عنه لا يرجع إلى نقص فى العلم ؛ وإنما يرجع إلى جهلى . غير أن الأمر بالنسبة إلىّ لم يكن لهوا ولا لعبا ، وكانت المسألة مسألة حياة أو موت . وانتهيت — كرها — إلى الاعتقاد بأن أسئلتى هى وحدها الأسئلة المشروعة التى على أساسها تقوم المعارف كلها ، كما انتهيت إلى الاعتقاد بأنى لا يصح أن أُلام على أسئلتى . وإنما على العلم تقع اللائمة إن كان يزعم أنه يجيب عنها .

إن سؤالى الذى حفزنى إلى حافة الانتحار وأنا فى الخمسين من عمرى كان أيسر الأسئلة جميعا . وهو يتردد فى صدر كل إنسان من الطفل الغر إلى الراشد الحكيم : هو سؤال لا يستطيع المرء أن يحيا دون أن يجيب عنه — كما تبيّن لى من تجاربى . ذلك السؤال هو : « ما وراء ما أفعل اليوم أو ما سوف أفعل فى غدى — بل ما وراء حياتى كلها ؟ » .

وأستطيع أن أعبر عن السؤال بصيغة أخرى فأقول « لماذا ينبغى لى أن أعيش ، ولماذا أرغب فى أى شىء أو أعمل أى شىء ؟ » وأستطيع كذلك أن أعبر عن السؤال بهذه العبارة : « هل فى حياتى معنى لا يهدمه الموت الذى لا مفر منه والذى ينتظرنى ؟ » .

وقد بحثت فى العلم عن جواب لهذا السؤال الوحيد الذى عبرت عنه بصيغ مختلفة . ووجدت أن المعارف الإنسانية كلها بالنسبة إلى هذا السؤال تنقسم إلى مايشبه نصفى الكرة التى تجد فى طرفيها قطبين ، أحدهما سالب والآخر موجب ، ولم أهتد عند هذا القطب أو ذاك إلى حل لمشاكل الحياة .

ذلك أن مجموعة من مجموعات العلم لا تعترف بالمشكلة فيما يظهر ، ولكنها تجيب بوضوح ودقة عن أسئلتها الخاصة المستقلة . وتلك هى مجموعة العلوم التجريبية ، وعلى قمة هذه المجموعة علوم الرياضة . أما المجموعة الأخرى فتعترف بالمشكلة ولكنها لا تجد لها حلا . وتلك هى مجموعة العلوم المعنوية ، وفوق قمتها الميتافيزيقا ( أو علوم ما وراء الطبيعة ) .

وقد شغفت منذ حداثتى بالعلوم المعنوية . وجذبتنى العلوم الرياضية والطبيعية فيما بعد . وقد قنعت بالإجابات المزيفة التى قدمتها لى هذه العلوم إلى أن تحدد السؤال فى ذهنى وإلى أن تضخم هذا السؤال فى نفسى وبات يتطلب الجواب الحاسم السريع .

قلت لنفسى فى دائرة العلوم التجريبية : « إن كل شىء يتطور ويتنوع ويسير نحو التعقيد والكمال . ولهذه الحركة قوانينها التى تسيّرها . وما أنت إلا جزء من كل . فإن أنت درست الكل بقدر ما تستطيع ، وإن أنت درست قانون التطور ، فهمت مكانتك فى المجموع ، وعرفت نفسك » ويخجلنى أن أعترف الآن بأنى اقتنعت بهذا الرأى فى وقت من الأوقات . كان ذلك حينما كنت أنا نفسى أسير فى طريق التعقيد والتطور . فكانت عضلاتى تنمو وتقوى ، وكانت ذاكرتى تغنى وتثرى ، وقدرتى على التفكير والفهم فى ازدياد . وكنت أنمو وأتطور جملة وقد أحسست بهذا النمو فى نفسى فكان من الطبيعى لى أن أعتقد أن ذلك هو القانون العالمى الشامل الذى ينبغى لى أن ألتمس فيه حلا لمشكلة حياتى . غير أن نموى الشخصى توقف بعد حين . وشعرت أنى لا أزدهر ، بل أذبل : فعضلاتى آخذ فى الضعف ، وأسنانى تتساقط . ورأيت أن قانون التطور لا يفسر لى شيئا . وليس ذلك فحسب . بل إن مثل هذا القانون لم يوجد ولن يوجد . وأدركت أنى إنما جعلت مما وجدت

فى نفسى فى فترة من فترات حياتى قانونا ثابتا . وأنعمت النظر فى تعريف هـذا القانون ، واتضح لى أنه لا يمكن أن يكون هنـاك قانون للتطور الذى لا يقف عند حد . وبات من الجلىّ أن هذا القول : « أن كل شىء فى الفضاء اللانهائى والزمان الذى لا يحد يتطور ويسير نحو الـكمال والتعقيد والتنوع لا يدل على شىء » . إنما هذه كلمات لا تؤدى إلى معنى . لأن اللانهائى ليس به معقد ولا بسيط ، وليس به تقدم أو تأخر ، وليس به حسن أو قبيح .

وفوق كل هذا فإن سؤالى الشخصى « من أكون أنا بما يجيش فى نفسى من رغبات ؟ » بقى بغير جواب . وأدركت أن هذه العلوم التجريبية شائقة جدا ، جذابة جدا ، ولـكنها حينما تُطبق على مشكلة الحياة تفقد دقتها ووضوحها . كلما بعدنا بهذه العلوم عن تطبيقها على مشكلة الحياة زادت دقة ووضوحا . وكلما حاولنا أن نجيب بهـا عن مشكلة الحياة زادت غموضا وإملالا . وإذا نحن اتجهنا إلى ذلك القسم من العـلوم الذى يحاول أن يجيب عن مسائل الحياة — أى إلى علم وظائف الأعضاء وعلم النفس وعلم الحياة وعلم الاجتماع — قابلنا فقراً مريعا فى الفـكر ، وغموضا شديداً ، وادعاء لا مبرر له البتة لحل مشا كل بعيدة عن الموضوع ، وتناقضا متواصلا بين كل ثقة فى الموضوع وبين الثقات الآخرين أو حتى بينه وبين نفسه . وإذا نحن اتجهنا صوب فروع العلم التى لا تختص بحل مشكلة الحياة ولـكنها تجيب عن مسائلها العلمية الخاصة ابتهجنا لقدرة العقل الإنسانى ، ولـكنا عرفنا سلفاً أنها لا تجيب عن مشا كل الحياة . إن هذه العلوم تكتفى بإهمال تلك المشا كل . ويقول علماؤها « ليس لدينا ما نجيب به عن هذا السؤال : من أنت ولماذا تعيش . وليس يهمنا ذلك . ولـكنك إن أردت أن تعرف قوانين الضوء أو الاتحادات الـكيائية ، أو قانون تطور الـكائنات الحية ، وإن أردت أن تعرف قوانين الأجسام وتركيبها ، والعلاقة بين الأعداد والـكميات ، وإن أردت أن تعرف قـوانين عقلك ، فإن لدينا لـكل ذلك إجابات واضحة دقيقة مقطوعاً بصحتها » .

ونستطيع أن نعبر بوجه عام عن العلاقة بين العـلوم التجريبية ومشكلة الحيـاة بهذه العبارة : السؤال « لماذا أعيش ؟ » الجواب « فى الفضاء اللانهائى ، وفى الزمان اللانهائى ، تتغير أشكال الجزيئات المتناهية فى الصغر إلى صور من التعقيد لا نهاية لها ، فإن فهمت قوانين تغير الصور أدركت لماذا تعيش فوق الأرض » .

ثم قلت لنفسى فى ميدان العلوم المعنوية « إن الإنسانية كلها تعيش وتتطور على أساس من المبادئ والمُثُل الروحية التى تهتدى بها . وهذه المثل تعبر عنها الديانات والعلوم والفنون وأشكال الحكومات . وهذه المثل ترتفع شيئا فشيئا ، وتتقدم الإنسانية إلى أقصى سعادتها ورفاهيتها . وأنا جزء من الإنسانية ، وإذن فمهمتى أن أدفع العلم بالمثل الإنسانية إلى الأمام وأن أعمل على تحقيقها » . وقد اقتنعت بذلك فى وقت كنت فيه ضعيف العقل . ولكن عند ما اتضحت مشكلة الحياة أمام عينىّ بجلاء تدهورت هذه النظريات فى الحال . ولا داعى إلى أن أذكر ذلك الغموض الذى لا تمازجه الريبة والذى تعلن به هذه العلوم النتائج التى تصل إليها بعد دراسة جانب يسير من الإنسانية كأنها نتائج عامة . ولا داعى إلى أن أذكر التناقض القائم بين الطوائف المختلفة التى تؤمن بهذا الرأى وتتحمس له ، فهم مختلفون فى تحديد المثل الإنسانية . وأكتفى بأن أذكر أن غرابة النظرية — ولا أقول سخفها — تنحصر فى أنك لكى تجيب عن هذا السؤال الذى يواجه كل إنسان « من أنا ؟ » أو « لماذا أعيش ؟ » أو « ماذا ينبغى أن أفعل ؟ » يجب عليك أولا أن تجيب عن هذا السؤال « ما هى حياة المجموع » ( وهى مجهولة له ، ولا يعلم منها إلا قطرة يسيرة فى فترة من الزمن قصيرة جدا ) . إن المرء لكى يعلم ما هو يجب أولا أن يفهم هذه الإنسانية الغامضة كلها ، التى تتألف من أفراد مثله لا يفهم أحدهم الآخر .

ولا بد لى أن أعترف أنه قد مر بى وقت اعتقدت فيه ذلك . وكان ذلك عند ما كانت لى مثلى العليا الخاصة التى أعتز بها والتى أبرر بها نزواتى . وكنت أحاول أن أصوغ نظرية تيسر للناس أن يحسبوا نزواتى قانون الإنسانية كلها . ولكن عند ما نشأت فى ذهنى مشكلة الحياة فى وضوح تام ، تبددت هذه الإجابة فى الحال هباء منثوراً . وأدركت أنه كما أن من العلوم التجريبية ما هو علم صحيح ، ومنها ما هو شبه علم يحاول أن يقدم الإجابات عن مسائل فوق مقدورها ، فكذلك فى عالم العلوم المعنوية هناك سلسلة كاملة الحلقات من العلوم المائعة التى تحاول أن تجيب عن أسئلة ليست فى حدود اختصاصها . وأشباه العلوم من هذا الطراز — العلوم القانونية والعلوم التاريخية الاجتماعية — تحاول أن تحل مشاكل حياة الإنسان بزعمها — كل منها بطريقتها الخاصة — أنها تقرر مشكلة حياة الإنسانية كلها .

وكما أن الإنسان — فى ميدان المعرفة التجريبية — الذى يبحث مخلصا كيف له أن

يعيش لا يمكن أن يقنع بهذا الجواب : « أدرسْ فى الفضاء الذى لا نهاية له التغيرات التى تطرأ على الذرات التى لا تحصى فتعقد تركيبها تعقيدا لا يقف عند حد فى زمن يمتد إلى ما لا نهاية . أدرس هذا تفهم حياتك » فكذلك الرجل المخلص لا يمكن أن يقتنع بهذا الجواب : « أدرسْ حياة الإنسانية كلها التى لا نعرف لها بداية ولا نهاية ، بل والتى لا نعرف منها حتى اليسير ، تفهم حياتك » . وأشباه العلوم المعنوية كأشباه العلوم التجريبية يحوطها الغموض وعدم الدقة والسخافات والمتناقضات كلما بعدت عن المشاكل الحقيقية . إن مشكلة العلم التجريبى هى تتابع السبب والمسبب فى مظاهر الكون المادية . فإذا ما تعرض العلم التجريبى إلى مسألة السبب النهائى أصبح هراء لا معنى له . وموضوع العلم المعنوى معرفة مغزى الحياة الأول . فإذا ما تعرض للبحث فى الأسباب والمسببات فى الظواهر المختلفة ( كالظواهر الاجتماعية والتاريخية ) أصبح كذلك هراء لا معنى له .

فالعلم التجريبى إذن لا يعطينا سوى المعرفة الإيجابية ، ويعرض عظمة العقل الإنسانى حينما لا يتعرض فى بحوثه لموضوع السبب النهائى . وعلى العكس من ذلك لا يكون العلم المعنوى علما يعرض عظمة العقل الإنسانى إلا إذا استبعد جانبا المسائل التى تتعلق بالأسباب والمسببات فى ظواهر الكون ، ولم ينظر إلى الإنسان إلا من حيث علاقته بالسبب النهائى . هذا هو موقف علوم الميتافيزيقا ( ماوراء الطبيعة ) أوالفلسفة فى ميدان العلوم التى يتكون منها أحد قطبى الدائرة . هذا العلم يعرض هذه الأسئلة فى وضوح وجلاء « من أنا ؟ وما الكون ؟ ولماذا وجدت ، ولماذا وجد العالم ؟ » . ومذ وجد هذا العلم كان دائما يقدم لنا جوابا واحداً لا يتغير . وسواء يسمى الفيلسوف خلاصة الحياة الكائنة فى نفسى والكائنة فى كل موجود « بالفكرة » أو « المادة » أو « الروح » أو « الإرادة » فهو لا يفتأ يقول إن هذه الخلاصة موجودة ، وإنى أنا منها ، ولكنه لا يعرف لماذا ، ولا يقول لماذا ، إن كان من المفكرين الدقيقين . وأنا أسأل « لماذا توجد هذه الخلاصة ؟ وماذا ينجم عن وجودها الآن ووجودها مستقبلا ؟ » . . . والفلسفة لا تجيب عن هذا السؤال ، بل أنها لتسأله هى نفسها . وإن كانت فلسفة حقيقية فإن كل جهدها ينحصر فى وضع هذا السؤال فى صيغة واضحة . وإن لزمت واجبها لا تستطيع الإجابة عن السؤال « من أنا ، وما الكون ؟ » إلا بقولها « كل شىء ولا شىء » كما تجيب عن هذا السؤال : « لماذا ؟ » بقولها « لست أدرى » .

وعلى هذا فإنى مهما قلّبت هذه الإجابات الفلسفية لا أستطيع أن أظفر بما يشبه الجواب ، لا لأن الجواب لا يتعلق بسؤالى — كما هى الحال فى ميدان العلوم التجريبية الواضح — ولكن لأن الجواب هنا ينعدم ، وذلك على الرغم من أن الجهد العقلى كله يتجه نحو سؤالى بذاته . وبدلاً من الظفر بالجواب يعود المرء بنفس السؤال ، إلا أنه فى صورة معقدة .

— ٦ —

أحسست أثناء بحثى عن جواب لمشكلة الحياة أن مثلى كمثل رجل ضل فى غابة . فهو يبلغ رقعة من الأرض الفضاء بين صفوف الأشجار ، ثم يتسلق شجرة ، ويرى الفضاء الذى لا يحد واضحاً أمام عينه . ولكنه يرى كذلك أن مأواه ليس فى ذلك المكان . ولا يمكن أن يكون . فيتوجه إلى الغابة المظلمة ، ويرى ظلامها الدامس ، ويدرك كذلك أن مأواه لا يمكن أن يكون هناك .

وهكذا أخذت أجول فى تلك الغابة من معارف الإنسان ، وسط أضواء العلوم الرياضية والتجريبية التى أظهرت لى آفاقاً واضحة غير أنها فى اتجاه لا يمكن أن يكون لى فيه مأوى . وكذلك أخذت أجول وسط ظلام العلوم المعنوية فكنت أمعن فى الظلام كلما أمعنت فى المسير ، فاقتنعت فى نهاية الأمر بأنه ليس هناك مخرج لى ولن يكون .

ولما أسلمت نفسى إلى الجانب المضىء من المعارف أدركت أنى إنما كنت أحيد ببصرى عن المشكلة . ومهما تكن تلك الآفاق الممتدة أمام بصرى واضحة جذابة . ومهما يكن الانغماس فى الفضاء اللانهائى لتلك العلوم خاطفا للأبصار ، فقد فهمت أنها كلما وضحت قلّ إشباعها لحاجتى وقلت قدرتها على الإجابة عن سؤالى .

قلت لنفسى « إنى أعرف ما يصير العلم على كشفه . وليس على امتداد ذلك الطريق جواب عن مشكلة معنى الحياة » . وأدركت أنه بالرغم من أن الهدف المباشر للعلم المعنوى هو أن يجيب عن سؤالى ، فإنه ليس فى هذا الميدان جواب غير ذلك الذى قدّمت لنفسى وهو : « ما معنى حياتى ؟ لا شىء » أو « ما ذا سيعود علىّ من الحياة ؟ لا شىء » أو « لماذا توجد الكائنات ، ولماذا وجدت ؟ لأنها موجودة ولأنى وجدت » .

وفى خلال بحثى عن دائرة واحـدة من المعرفة الإنسانية ، ظفرت بعدد لا يحصى من الإجابات التى تتعلق بموضوعات لم أسأل عنهـا : ظفرت بإجابات عن تركيب النجوم الـكيمائى ، وعن حركة الشمس نحو مجموعة هركيوليز ، وعن أصل الأنواع وأصل الإنسان ، وعن صور الذرات الأثيرية الخفيفة المتناهية فى الصغر . ولـكنى فى هذا الميدان من ميادين المعرفة لم أجد جوابا عن سؤالى « ما معنى حياتى ؟ » غير هذا « إنما أنت ما تسميه ( حياتك ) . أنت مجموعة من الذرات التى تماسكت عرضـا واتفاقا . والتفاعل المتبادل بين هذه الذرات والتغيير الذى يطرأ عليهـا يُحدث فيك ما تسميه ( حياتك ) . وهذا التماسك يبقى فترة من الزمن ، ثم يقف التفاعل بين الذرات فيقف ما تسميه ( الحياة ) فتنتهى بذلك كل مشاكلك . ما أنت إلا كتلة صغيرة من مادة ما اتحدت أجزاؤها عرضا . هذه الـكتلة الصغيرة تتخمر . وتسمى الـكتلة هذا التخمر ( حياتها ) . ثم تنحل الـكتلة ، فينتهى التخمر وتنتهى بذلك كل مشاكلك » . هذا ما يجيب به الجانب الواضح من العلم . وهو لا يسعه إلا أن يجيب كذلك لو سار على مبادئه سيرا دقيقا .

وترى من هذا الجواب أنه لا يجيب عن السؤال . فأنا أريد أن أعرف معنى حياتى . أما كونها جزءاً من اللانهائى فلا أقول إنه لا يكسب الحيـاة معنى ، بل أقول إنه يهدم كل ما يمكن أن يكون لها من معنى . وهذا الجانب من العلم التجريبى الدقيق يحاول أن يوفق بصورة غامضة بينه و بين العلم المعنوى وذلك حينما يزعم أن معنى الحيـاة ينحصر فى التطور وفى التعاون مع هـذا التطور . ولـكن هـذه الصورة من صور التوفيق لا يمكن أن تغنينا كجواب للمشكلة نظراً لغموضها وعدم دقتها .

أما الجانب الآخر من العلم — الجانب المعنوى — فهو حينما يلتزم مبادئه التزاما دقيقاً ويجيب عن المشكلة إجابة مباشرة ، يجيب دائما وفى كل عصر بطريقة واحدة . إنه يقول « إن الدنيا شىء غير محدود أو مفهوم . والحياة الإنسانية جزء غير مفهوم من ذلك ( الـكل ) غير المفهوم » . وأنا أستبعد ثانية كل محاولة للتوفيق بين العلوم المعنوية والعلوم التجريبية . وهى تلك المحاولات التى تستند إليهـا استناداً كاملا أشباه العلوم كلها التى نسميها شرعية أو سياسية أو تاريخية . فى أشباه العلوم هذه تُقحم خطأ مرة أخرى فـكرة التطور والتقدم ، مع هذا الفارق الوحيد : وهو أنه فى المرة الأولى كان التطور يشمل كل شىء ، بينما هو هنـا

لا يشمل غير حياة الإنسان . ولكن الخطأ واقع فى الحالتين . فالتطور والتقدم فى اللانهائى لا يمكن أن يكون له اتجاه أو هدف . ومن ثم فليس فى هذا الرأى جواب فيما يختص بسؤالى .

وفى العلم المعنوى البحت ، أى فى الفلسفة الحقيقية — لا فى تلك الفلسفة التى يسميها شوبنهور « الفلسفة المحترفة » التى تنحصر وظيفتها فى تصنيف كل الظواهر الموجودة إلى أبواب فلسفية جديدة وتسميتها بأسماء جديدة — حيث لا يغض الفيلسوف الطرف عن الموضوع الأساسى ، لا تظفر إلا بجواب واحد لا يتغير . وذلك الجواب يقدمه لك سقراط كما يقدمه لك شوبنهور وسليمان وبوذا .

قال سقراط وهو يتأهب للموت « إننا نقترب من الحقيقة كلما أشرفنا على مفارقة الحياة ، إذ ما الذى نجاهد فى سبيله نحن محبى الحقيقة ؟ إننا نجاهد لكى نحرر أنفسنا من الجسد ومن كل الشرور التى تنشأ عن حياة الجسد ! ولما كان الأمر كذلك ، فلماذا إذاً لا نفرح حينما يأتى إلينا الموت ؟ إن الرجل الحكيم يبحث عن الموت طوال حياته ، ولذا فالموت لا يفزعه » .

ويقول شوبنهور « إذا ما أدركنا أن طبيعة العالم الخفية ليست سوى ( الإرادة ) ، وأن كل مظاهر الطبيعة — من الحركة اللاشعورية لقوى الطبيعة الغامضة إلى عمل الإنسان الكامل الوعى — إن هى إلا مظاهر لهذه الإرادة ، لم يعد لنا ما يبرر التخلص من النتائج : وذلك أنا إن نبذنا الإرادة وتخلينا عنها طائعين ، ألغينا كذلك كل تلك المظاهر — ذلك التيار الدافق والجهد الذى لا يكل ولا يهدأ فى كل مرحلة من مراحل المظاهر الطبيعية التى منها وعن طريقها يتألف العالم ؛ وتلك الصور المتنوعة المتعددة التى تتلو إحداها الأخرى فى تدرجها ؛ وستختفى مع هذه الصور كل دلائل الإرادة ، وستختفى كذلك فى النهاية الصور العالمية لتلك الدلائل — الزمان والمكان ، والصورة النهائية الأساسية : أى أن كل ما هو ذاتى وكل ما هو موضوعى سوف يتلاشى . إذا لم تكن هناك إرادة فلن يكون هناك مظهر لشىء ولن يكون هناك عالم . إنه لا يبقى أمامنا — بالتأكيد — سوى العدم . ولا يقوم فى وجه هذا التحول إلى العدم إلا طبيعتنا وهى إرادة الحياة عينها — وهى نحن ، لأنها عالمنا . وكراهيتنا الشديدة للعدم ، أو بعبارة أخرى رغبتنا فى الحياة ، ليست سوى تعبير آخر عن إرادتنا الشديدة للحياة ، وأننا لسنا سوى هذه الإرادة ، ولا نعرف غيرها شيئا . وإذن فإن

ما يبقى — بعد إلغاء الإرادة إلغاء تاما — لنا نحن الممتلئين بالإرادة ، هو لا شيء ألبتة . بل على العكس من ذلك أن عالمنا هذا — وهو جد حقيقى — بكل ما فيه من كواكب ونجوم هو عدم عند أولئك الذين انقلبت لديهم الإرادة أو نبذوها » .

ويقول سليمان « باطل الأباطيل — كل شيء باطل . ما فائدة الإنسان من أى عمل يتولاه تحت الشمس ؟ جيل يتولى وجيل يقبل والأرض باقية إلى الأبد ... إن ما كان سوف يكون . وما حدث سوف يحدث ، وليس تحت الشمس جديد . هل هناك شيء تستطيع أن تقول عنه : أنظر ، هذا جديد ؟ كلا . إنه من قديم الزمان الذى سلف . ليس لما سلف ذكرى ، ولن تكون لما يُقبل ذكرى . أنا الذى أعظكم كنت ملكا على بنى إسرائيل فى بيت المقدس ، ولقد وهبت قلبى للتنقيب والبحث عن طريق الحكمة فى كل ما حدث تحت السماء . هذا العمل المضنى كلّف الله به بنى الإنسان ليختبرهم به . ولقد شهدت كل عمل تحت الشمس ، ورأيت أن الكل باطل يبعث على حنق النفوس ... وناجيت قلبي ، وقلت له : هيه ، أنا مالك لضيعة كبرى ، وعندى من الحكمة أكثر من كل من سبقنى ببيت المقدس — أجل ، إن قلبي مفعم بكثير من تجارب الحكمة والمعرفة . ولقد وهبت قلبى لإدراك الحكمة ولمعرفة الجنون والحماقة ، فرأيت أن ذلك أيضا يبعث على حنق النفوس . لأن الحكمة العظيمة تنطوى على الحزن العميق . ومن يزدد علما يزدد أسى .

قلت فى نفسى : الآن انطلق ، ولسوف أمتحنك بالمرح . وإذن فلتنعم بمختلف المتع . فكان ذلك باطلاً كذلك . وقلت عن الضحك إنه جنون ، وعن المرح ماذا يجدى ؟ حاولت أن أنعش جسدى بالخمر . وحاولت أن أتمسك بالحماقة حينما كانت الحكمة ترشد قلبى ، حتى أستطيع أن أرى ما فائدة بنى الإنسان من العمل تحت السماء كل يوم من أيام حياتهم . وقمت بعمل كثير — شيدت لى بيوتا ، وزرعت الكروم ، وأنشأت الحدائق والبساتين ، وغرست فيها الشجر من كل الثمار . وحفرت البرك أروى من مائها الغابة التى تنمو بها الأشجار . واستخدمت الخدم والإماء ، وولّدت الخدم فى بيتى . وامتلكت من قطعان الغنم والماشية أكثر من كل من سبقنى فى بيت المقدس . وجمعت كذلك الذهب والفضة ونوادر الكنوز من مختلف الملوك والأقاليم . وظفرت بالمغنين والمغنيات ، وبكل ما يلهو به ابن آدم ، كآلات الموسيقى وما إليها . وهكذا كنت عظيما ، وتوفر لى ما لم يتوفر لكل من سبقنى ببيت المقدس .

وبقيت حكمتى معى كذلك . ولم أحرم عينىّ من كل ما اشتهتا . ولم أُبعد قلبى عن أى لون من ألوان السرور ... ثم نظرت إلى كل عمل عملته يداى ، وإلى الجهد الذى بذلت . فرأيت أن الكل باطل يبعث على حنق النفوس ، وليس من ورائه جدوى تحت الشمس . ثم التفت إلى التمعن فى الحكمة والجنون والحماقة ... ولكنى رأيتها جميعا تخضع لحادث واحد . فقلت فى نفسى : إن ما يحدث للأحمق ، يحدث لى أنا ، فلماذا إذن كنت أكثر منه حكمة ؟ فقلت فى نفسى هذا كذلك باطل . لأن ذكرى الحكيم لا تزيد عن ذكرى الأحمق إلى الأبد ، فكل ما هو كائن اليوم سوف يُنسى جميعه فى الأيام المقبلة . وكيف يموت الحكيم ؟ كالأحمق . فزهدت الحياة ، لأن العمل الذى يتم تحت الشمس يحزننى إذ أن الكل باطل يبعث على حنق النفوس . أجل لقد كرهت كل عمل مارسته تحت الشمس ، لأنى رأيت أنى لا بد تاركه للرجل الذى يخلفنى ... إذ ماذا يجدى الإنسان كل جهده وكل ما يُحزن قلبه ، ولماذا يعمل تحت هذه الشمس ؛ إن كل أيامه أحزان وكل أعماله آلام . نعم ، حتى فى المساء لا يستقر له بال . إن هذا كذلك باطل . إن الإنسان لا يتمتع بنعمة الأمن حتى يأكل ويشرب ويسرّى عن نفسه من عمله . كل شىء متشابه عند الناس أجمعين . وهناك حدث واحد يقع للطيبين كما يقع للأشرار ، وللحيى الخير ومحيى الشر ، وللطاهر والدنس ، ولمن يضحى ومن لا يضحى . والطيب كالخبيث . ومن يُقسم بالباطل ومن يخشى القسم . إنه شر يتخلل كل ما يقع تحت الشمس ، وكل شىء يتعرض لحدث واحد . نعم ، إن قلوب بنى الإنسان كذلك مليئة بالشر ، والجِنَّة فى قلوبهم ما داموا أحياء ، وبعد ذلك يذهبون إلى الموتى . إن من يعيش بين الأحياء لا ينقطع له أمل : لأن الكلب الحى خير من الأسد الميت ، والأحياء يعلمون أنهم سوف يموتون ، ولكن الموتى لا يعلمون شيئا ، وليس لهم فى الدنيا جزاء ، لأن ذكراهم غابت عن الأذهان . وقد تلاشى كذلك حبهم وبغضهم وما فى قلوبهم من حسد . ولم يعد لهم ضلع إلى الأبد فى أى عمل يتم تحت الشمس »[1] هكذا قال سليمان ، أو من كتب هذه الكلمات أيا كان .

---

(١) هذه ترجمة إتولستوى لما جاء فى الكتاب المقدس وهى تختلف قليلا فى بعض المواضع عن نص الكتاب بالإنجليزية .

وهذا ما تحدثنا به الحكمة الهندية :

خرج مرة فى عربته ( ساكيا مونى ) وهو أمير شاب سعيد ، خفى عنه العلم بوجود المرض والشيخوخة والموت . فوقعت عيناه على رجل مسن مفزع ، تحطمت أسنانه وسال لعابه من فمه . فدهش الأمير الذى خفى عنه حتى اليوم العلم بالشيخوخة . وسأل سائق عربته عما رأى ، وكيف آل هذا الرجل إلى مثل هذه الحال الزرية المقززة . ولما علم أن ذلك هو المصير المألوف للناس جميعا ، وأن تلك الحال عينها تنتظره بغير مناص — وهو الأمير الشاب — لم يستطع أن يواصل السير ، وأمر السائق أن يقفل إلى البيت راجعا كى يتدبر الأمر . ثم حبس نفسه وأخذ يفكر . وربما وجد فى نفسه ما يعزيه ، لأنه خرج بعدئذ فى العربة مرة أخرى وهو مرح سعيد . غير أنه رأى هذه المرة رجلا مريضا . رأى رجلا هزيلا شاحب اللون قاتم العينين يرتعش من شدة الهزال . فوقف الأمير ، الذى خفى عنه العلم بالمرض ، وسأل عما رأى . ولما علم أن ذلك هو المرض الذى قد يتعرض له أى إنسان ، وأنه هو نفسه — وهو الأمير الصحيح البدن الهانىء القلب — قد تصيبه العلة فى غده ، عاد إليه ذلك الاكتئاب الذى يحرمه المتعة بحياته ، وأمر سائقه أن يقفل راجعا إلى البيت . وبحث عن العزاء مرة أخرى ، وربما وجده ، لأنه خرج فى عربته للمرة الثالثة قصد النزهة . ولكنه فى هذه المرة الثالثة رأى مشهدا آخر جديدا : رأى جماعة تحمل شيئا فسأل : « ما هذا ؟ » وقيل له : « هذا رجل ميت » . قال : « ما معنى كلمة (ميت) » فقيل له : « إن المرء حين يموت يمسى كذلك الرجل» . واقترب الأمير من الجثة ، ورفع عنها الغطاء ، ونظر إليها ، وسأل « ما الذى سيحدث له الآن ؟ » فقيل له إن الجثة ستوارى التراب . « لماذا ؟ » . « لأنه بالتأكيد لن يعود إلى الحياة ، ولن يصدر عنه غير النتن والدود» . « وهل هذا هو مصير الناس أجمعين ؟ وهل سوف يحدث لى نفس هذا الشىء ؟ هل سوف يدفنوننى ، وهل سوف تصدر عنى الرائحة الكريهة ويأكلنى الدود ؟ » . « نعم » . « إلى البيت ! لن أركب عربتى للنزهة ، ولن أفعل ذلك مرة أخرى ! » .

ولم يجد ( ساكيا مونى ) فى الحياة سلوى ، وقرر أن الحياة أعظم الشرور ، وكرس كل قواه الروحية للتحرر منها ، وليحرر غيره منها ، وقرر أن يفعل ذلك بحيث لا تتجدد الحياة

حتى بعد الموت ، بل تنهار انهياراً كاملا من جذورها . هذا ما تقول به حكمة الهند كلها .

وهذه إذن هى الإجابات المباشرة التى تقدمها لنا الحكمة الإنسانية ، إذا وجهنا لها السؤال عن مشكلة الحياة .

يقول سقراط : « إن حياة الجسد شر وأكذوبة . وإذن فتحطيم حياة الجسد نعمة ، يجب أن نتمناها » .

ويقول شوبنهور : « الحياة هى ما لا ينبغى أن يكون — هى شر . والانتقال إلى العدم هو وحده ما فى الحياة من خير » .

ويقول سليمان : « كل ما فى الحياة — من حماقة وحكمة وثراء وفقر ومرح وحزن — باطل وعدم . يموت المرء ولا يبقى منه شىء . وهذا سخف » .

ويقول بوذا : « يستحيل على المرء أن يعيش وهو يدرك أن الألم والضعف والشيخوخة والموت أمور لا مفر منها — يجب أن نتحرر من الحياة الممكنة كلها » .

وما ذكره أصحاب هذه العقول الجبارة فَكَّرتُ فيه وأحسَّتْ به وعبرتْ عنه ملايين الملايين من أمثالهم من البشر . وقد فكرت فيه وأحسست به أنا كذلك .

وهكذا ترى أن جولتى فى العلوم عززت لدىّ روح اليأس بدلا من أن تحررنى منها . فإن ضربا من المعرفة لم يجب عن مشكلة الحياة ، وضرباً آخر أجاب إجابة مباشرة تؤيد يأسى ، وتشير لا إلى أن النتيجة التى وصلت إليها كانت ثمرة للخطأ أو لمرض عقلى ، بل على العكس من ذلك تدل على أنى كنت سليم التفكير وأن أفكارى تطابق النتائج التى وصلت إليها أقوى العقول البشرية .

ولا فائدة من أن يخدع الإنسان نفسه ، فالكل باطل ! وسعيد من لم يولد : والموت خير من الحياة ، ويجب على المرء أن يحرر نفسه من الحياة .

## — ٧ —

ولما لم أجد فى العلم ما يشفى غلتى ، بدأت أبحث عن تعليل المشكلة فى الحياة نفسها ، وتعشمت أن أجد التعليل بين من يحيط بى من الناس . وبدأت ألاحظ كيف يعيش هؤلاء الناس — وهم من أمثالى — وما موقفهم إزاء هذه المشكلة التى انتهت بى إلى اليأس .

وإليكم ما وجدت بين الناس الذين كانوا يشبهونني فى تربيتهم وأسلوب حياتهم .

وجدت أن للناس الذين يحيون حياتى أربعة مخارج من المأزق الذى كنا جميعا نتردى فيه .

المخرج الأول هو الجهل . وهو الجهل بأن الحياة شر عبث ، بل وعدم إدراك هذه الحقيقة . والناس من هذا القبيل — والنساء خاصة أو صغار الشبان وأغبياء الناس — لم يفهموا بعد تلك المشكلة الحيوية التى واجهت شوبنهور وسليمان وبوذا . إنهم لا يرون الأفعى التى تنتظرهم كما لا يرون الفيران التى تقرض الغصن الذى يتعلقون به ، وهم يلعقون قطرات الشهد . غير أنهم يلعقون هذه القطرات من الشهد لفترة وجيزة فقط . ثم يتنبهون بعدئذ لسبب ما إلى الأفعى والفيران ، فيكفون عن لعقه . ومن هولاء لم أتعلم شيئا .

والمخرج الثانى هو الأبيقورية . يدرك المرء أن الحياة لا رجاء فيها فيستغل ما بين يديه من مزايا ، ويغض الطرف عن الأفعى والفيران ، ويلعق الشهد بأحسن الوسائل ، وبخاصة إذا كان الميسور منه وافراً . ويعبر سليمان عن هذا المخرج بقوله : « ثم اخترت المرح ، إذ أن خير ما يظفر به الإنسان تحت الشمس هو أن يأكل ويشرب ويمرح . وأن يبقى على ذلك طوال الأيام التى قدر له الله أن يحياها تحت الشمس . فلتأكل إذن خبزك مسروراً ، واحسُ خمرك بقلب مرح ... وعش فى هناء مع الزوجة التى تحب طوال أيام حياتك المليئة بالغرور ... ذلك نصيبك من الحياة ومن عملك الذى تؤديه تحت الشمس ... كل ما تمد إليه يداك بالعمل اعمله بكل ما أوتيت من قوة ، إذ أن القبر الذى سوف تتردى فيه لايحتوى على عمل أو حيلة أو علم أو حكمة » .

بهذه الطريقة يجعل أكثر الناس من أمثالى حياتهم مستطاعة . وظروفهم تمدهم بأسباب الرفاهية أكثر مما تمدهم بأسباب المشقة . وغباؤهم العقلى يمكّنهم من أن ينسوا أن ميزتهم من مركزهم الاجتماعى ميزة عارضة . كما أنهم ينسون أن ليس بوسع كل امرئ أن تكون له قصور عديدة ، وألف زوجة كما كان لسليمان . وينسون أن لقاء كل رجل يتمتع بألف زوجة ألفُ رجل بغير زوجة واحدة ، وأن لقاء كل قصر ألفُ رجل عليهم أن يشيدوه بعرق الجبين ، وأن الفرصة العارضة التى جعلتنى اليوم كسليمان قد تجعلنى فى غدى عبداً من عبيد سليمان . إن ضعف الخيال عند هؤلاء الناس يمكّنهم من نسيان الأشياء التى أرقت جنبى بوذا — وهى ضرورة المرض والشيخوخة والموت ، التى سوف تقضى على هذه المتع اليوم أو غدا .

هكذا يفكر ويشعر أكثر الناس اليوم ممن يسيرون على أسلوبنا فى الحياة . وقد يصرح بعض هؤلاء الناس بأن هذا الرأى الذى يرونه بفكرهم الضعيف وخيالهم القاصر فلسفة من الفلسفات — يسمونها الفلسفة الإيجابية — ولكن ذلك فى رأيى لا يقصيهم عن صفوف الناس الذين يلعقون الشهد كى لا يواجهوا المشكلة .

لم أستطع أن أنهج نهج هذه الفئة . ولما لم أكن مثلهم قاصر الخيال لم أستطع أن أخلق فى نفسى هذا الخيال القاصر خلقا . ولم أستطع أن أُبعد بصرى عن الفيران والأفعى ، كما لا يستطيع ذلك رجل حى بعد ما تقع عليها عيناه .

والمخرج الثالث هو القوة والنشاط . إذا ما أدرك الفرد أن الحياة شر وعبث انهال عليها بالتحطيم . وقليل من الناس يعملون ذلك ، وأولئك هم أصحاب القوة الجبارة والمنطق الصارم . إنهم يدركون سخف النكتة التى يسخر منهم بها القدر ، ويدركون أن الموت خير من الحياة ، وأن خير الأمور العدم ، فيعملون طبقا لذلك ويأتون على هذه السخرية دون توان ما دامت هناك الوسيلة : حبل حول الرقبة ، أو قليل من ماء ، أو سكين يُطعن فى القلب ، أو قطار يسير على قضيب . ويزداد عدد أولئك الذين ينفذون ذلك من أبناء طائفتنا يوما بعد يوم . وهم يعملون ذلك فى أغلب الأحيان وهم فى زهرة حياتهم ، حينما تكون قواهم العقلية على أشدها ولم يكتسبوا بعد تلك العادات التى تحط بعقل الإنسان .

وقد رأيت أن هذه الوسيلة خير الوسائل للنجاة ، وأردت أن أنفذها .

والمخرج الرابع هو الضعف . يرى الفرد حقيقة الموقف ، ومع ذلك يتشبث بالحياة ، وهو يعلم سلفا أنها لا تؤدى إلى شىء . والناس من هذا الضرب يعلمون أن الموت خير من الحياة ، غيرأنهم تعوزهم القدرة على العمل طبقا لما توحيه إليهم عقولهم — وذلك أن يسرعوا بالقضاء على هذه الخدعة وبالقضاء على حياتهم — وكأنهم يترقبون شيئا ما . ذلك هو مخرج الضعف ، لأنى إن عرفت ما هو خير لى ، وكان ذلك فى مقدورى ، فلماذا لا أستسلم لهذا الخير ؟ . . . وقد ألفيت نفسى رجلا من هذا الطراز .

وهكذا ترى أن أبناء طبقتى من الناس يتفادون التناقض المريع بأربع وسائل . ومهما أعنتُ الفكر لم أجد غير هذه الوسائل الأربع . إحداها ألاّ يدرك المرء أن الحياة خلو من المعنى ، كلها غرور وشر ، وأنه من الخير للمرء ألاّ يعيش . ولم يسعنى إلاّ أن أدرك ذلك .

وما إن أدركته لم أستطع أن أغمض عينى عنه . والوسيلة الثانية أن تضرب فى الحياة كما هى دون أن تفكر فى المستقبل . ولم أستطع أن أفعل ذلك . وكنت مثل ( ساكيا مونى ) لا أستطيع أن أخرج راكبا للصيد وأنا أعلم بوجود الشيخوخة والألم والموت . وكان خيالى حيا جدا . ولم أستطع كذلك أن أبتهج بالأحداث العارضة التى تأتى إلىّ بالمتعة فى لحظة ثم تزول . والوسيلة الثالثة أن يدرك المرء أن الحياة شر وسخف فيقضى على حياته بيديه . وقد أدركت ذلك ، ولست أدرى لماذا لم أنتحر . والوسيلة الرابعة أن يعيش المرء كما عاش سليمان وشوبنهور — يعلم أن الحياة نكتة سخيفة يسخر منا بها القدر ، ومع ذلك يواصل الحياة ، فيغتسل ويلبس ويأكل ويتحدث إلى غيره بل ويؤلف الكتب . وكان ذلك بغيضاً إلى نفسى مؤلماً جداً ، ولكنى بقيت على هذا الوضع .

وأرى الآن أنى لم أنتحر لأنى أحسست إحساسا غامضا بأن آرائى لم تكن سليمة صحيحة . ومهما بدا لى تسلسل آرائى وآراء الحكماء الذى حدا بنا إلى الاعتراف بخلو الحياة من المعنى — مهما بدا لى ذلك مقنعا لا شك فيه ، فقد بقى فى دخيلة نفسى شك غامض فى عدالة الحكم الذى وصلت إليه .

وكان الأمر كما يأتى : أدركت بعقلى أن الحياة لا معنى لها . وإذا لم يكن هناك شىء أرقى من العقل ( وليس هناك ما هو أرقى منه . وليس هناك ما يدل على وجود ما هو أرقى منه ) فالعقل إذن هو خالق الحياة لى . فإذا لم يوجد العقل لم تكن لى حياة . وكيف يستطيع العقل أن ينكر الحياة وهو خالقها ؟ أو بعبارة أخرى : إذا لم تكن هناك حياة ما كان لعقلى وجود ، وإذن فالعقل وليد الحياة . الحياة كل شىء ، والعقل ثمرتها ، ومع ذلك فالعقل ينبذ الحياة نفسها ! وقد أحسست أن فى ذلك شيئاً من الخطأ .

وقلت لنفسى لاشك أن الحياة شر لامعنى له ، ومع ذلك فقد عشت وما زلت أعيش ، وعاش الناس جميعا وما زالوا يعيشون . فكيف كان ذلك ؟ لماذا نعيش وممن الممكن الآ نعيش ، وهل ليس هناك حكيم غيرى وغير شوبنهور يدرك شر الحياة وخلوها من المعنى ؟ .

إن التفكير الذى يُظهر عبث الحياة ليس شاقا أو عسيرا ، وقد كان من زمان بعيد مألوفا للعامة السذج ، ومع ذلك فقد عاشوا وما زالوا يعيشون . فكيف يعيشون جميعا ولا يتطرق إليهم شك فى أن الحياة أمر معقول ؟

إن علمى — تؤيده حكمة الحكماء — قد بيّن لى أن كل شىء على سطح الأرض — عضوى أو غير عضوى — منسق بمهارة فائقة ، وليس هناك ما هو شاذ سخيف غير موقفى أنا . وأولئك الحمقى — وأقصد الجماهير الغفيرة من الناس — لا يعلمون شيئا عن كيفية تنظيم كل ما فى الدنيا من عضوى وغير عضوى ، ولكنهم يعيشون ، ويبدو لهم أن حياتهم مرتبة أحكم ترتيب ! ...

لخطر لى هذا الخاطر : « ربما كان هناك شىء لم أدركه بعد ؟ فهذه هى طريقة الجهال . إنهم دائما يقولون مثلما أقول . إذا لم يعرف الجاهل شيئا ما قال إن ما لا يعرفه سخيف . وفى الحق أنه ليبدو أن هناك عالما بأسره من الناس كان يعيش ولا زال يعيش كأنه يفهم معنى حياته ، لأنه ما كان ليستطيع العيش دون فهمه ؛ ولكنى أقول إن هذه الحياة كلها تخلو من المعنى وإنى لا أستطيع أن أعيش » .

« لا شىء يمنعنا من إنكار الحياة بالانتحار . إذن فلتقتل نفسك ، ولا تجادل بعد هذا . إذا كانت الحياة لا تسرك فلتقتل نفسك ! إنك تعيش ، ولا تستطيع أن تفهم للحياة معنى — إذن فلتقض على حياتك ، ولا تحيا عابثا ، تقول وتكتب إنك لا تفهم الحياة . إنك تضطرب فى وسط طيب من الناس ، كلهم قانعون ، وكلهم يعلمون ما هم فاعلون . فإن كنت تجد الحياة كئيبة منفرة فلتبتعد ! » .

حقا لسنا نحن — الذين نؤمن بضرورة الانتحار ولا ننفذه — سوى أضعف الناس ، وأشدهم تناقضا . أو بعبارة أوضح نحن أشد الناس غباء . نملأ الدنيا صياحا بغبائنا كما يفعل الأحمق الذى يصيح بغجرية ذات أصباغ . لأن حكمتنا — مهما كانت صادقة — لم تمدنا بالعلم بمعنى الحياة . فى حين أن الناس أجمعين ، الذين يحتملون الحياة — وهم ملايين — لا يشكون فى معنى الحياة .

حقا لقد عاش الناس من أقدم العصور التى عرفتُ شيئا عنها — حينما بدأت الحياة — وهم يعرفون الجدل الخاص بعبث الحياة ، التى أظهرت لى خلوّها من المعنى ، ومع ذلك فقد عاشوا ينسبون إلى الحياة شيئا من المعنى .

منذ أن دبت الحياة فى الناس على صورة من الصور وجدوا للحياة معنى ، وحيوا تلك

الحياة التى تحدرت إلىّ . كل ما فىّ وكل ما حولى — بدنى وغير بدنى — ثمرة لمعرفتهم بالحياة . وهذه الأداة الفكرية نفسها التى أتدبر بها هذه الحياة وأحكم عليها لم تكن من اختراعى بل من اختراعهم . ولقد وُلدت ونشأت وتعلمت بفضلهم . استخرجوا الحديد من باطن الأرض ، وعلمونا قطع الغابات ، واستأنسوا البقر والخيل ، وعلمونا أن نزرع الحبوب ، وأن نعيش مجتمعين ، ونظموا حياتنا ، وعلمونى أن أفكر وأن أتكلم . وهأنذا — وأنا من إنتاجهم — وقد أمدونى بالطعام والشراب ، وعلمونى — وأنا أفكر بأفكارهم وألفاظهم — أجادل فى أنهم عبث باطل ! قلت لنفسى « هناك نوع من الخطأ ، ولقد ارتكبت خطأ كبيراً بصورة ما » . ثم انقضى وقت طويل قبل أن أستطيع الكشف عن موضع الخطأ .

— ٨ —

كل هذه الشكوك التى أستطيع الآن أن أعبر عنها بشىء من الدقة لم أستطع فى ذلك الحين أن أعبر عنها . كنت حينئذ أحس أن النتائج التى وصلت إليها فيما يتعلق بعبث الحياة مهما تكن حتمية بحكم المنطق — ومهما كان تأييد كبار المفكرين لها — لا تخلو من بعض الخطأ . وسواء كان هذا الخطأ فى التفكير نفسه أو فى صياغة السؤال ، فإنى لم أعرف ذلك على وجه الدقة — إنما أحسست أن النتيجة كانت مقنعة من الناحية العقلية ، ولكن ذلك لم يكن كافيا . وهذه النتائج كلها لم تقنعنى إلى الحد الذى يجعلنى أعمل بناء على ما يترتب على تفكيرى — أعنى أن أقتل نفسى . ولو أنى قلت إن العقل أدى بى إلى النقطة التى وصلت إليها لكنت — إذا لم أنتحر — من الكاذبين . كان العقل يعمل ، ولكن شيئا آخر كذلك كان يعمل ، شيئا أستطيع أن أسميه الإحساس بالحياة . كانت هناك قوة تعمل وترغمنى على توجيه انتباهى إلى هذا الشىء دون ذاك . تلك هى القوة التى أنقذتنى من موقفى اليائس وحوّلت ذهنى إلى اتجاه آخر . هذه القوة أرغمتنى على أن أوجه انتباهى إلى أنى ، ومعى بضع مئات من أمثالى ، لا نكوّن المجموعة البشرية كلها ، ونبهتنى كذلك إلى أنى لم أعرف بعد حياة البشر .

والتفتُّ إلى الدائرة الضيقة من زملائى فلم أر غير قوم لم يفهموا المشكلة ، أو قوم فهموها ولكنهم أغرقوها فى نشوة الحياة ، أو فهموها وقضوا على حياتهم ، أو فهموها ولكنهم

— لضعفهم — كانوا يحيون حياتهم يائسين . ولم أر غير هؤلاء . وبدا لى كأن تلك الدائرة الضيقة من الأغنياء المتعلمين ذوى الفراغ التى أنتمى إليها تكوّن الإنسانية بأسرها ، وكأن تلك الملايين العديدة التى عاشت وما تزال تعيش ليست سوى ماشية من نوع ما — وليسوا أناسا حقيقيين .

ويبدو لى الآن أن من أعجب العجب ومن الأمور التى لا تُفهم ولا تصدق أن أستطيع — وأنا أناقش مسألة الحياة بالعقل — أن أغض الطرف عن حياة الإنسانية كلها التى تحيط بى من كل جانب ، وأن أزلّ إلى هذا الحد البعيد وإلى هذه الدرجة القصوى من السخف حتى أحسب حياتى ، وحياة سليمان وشوبنهور ، هى الحياة الحقة ، وهى الحياة الطبيعية ، وحياة الملايين حدث لا يستحق الالتفات . هكذا كان موقفى ، برغم أنه يبدو لى اليوم جد عجيب . وصوّر لى وهم اعتزازى بقدرتى العقلية أنه مما لا شك فيه أنى — وسليمان وشوبنهور — عرضنا المسألة بصدق ودقة لا تجعل رأيا غير رأينا جائز الصواب . ولم أشك لحظة فى نظرتى إلى الموضوع ، حتى إن تلك الملايين كانت تتألف — فى عينى — من رجال لم يبلغوا بعد أن يدركوا كل ما فى الموضوع من عمق ، وحتى بحثت عن معنى حياتى دون أن يطرأ لى مرة أن أسأل : « ما المعنى الذى أضفته على الحياة تلك الجموع من عامة الناس التى عاشت وما تزال تعيش على وجه الأرض ؟ »

عشت طويلا فى هذه الحال الجنونية — وهى حال فى الواقع ( إن لم يكن باللفظ ) تتميز بها خاصة نحن معشر الأحرار المتعلمين . وبفضل حبى الطبيعى العجيب للعمال الحقيقيين ، ذلك الحب الذى أرغمنى على أن أفهمهم وعلى أن أدرك أنهم ليسوا أغبياء كما حسبناهم ، أو بفضل إخلاصى فى العقيدة بأنى لا يمكن أن أعرف شيئا أكثر من أن خير ما أفعله هو أن أشنق نفسى . بهذا الفضل أو بذاك أحسست بالغريزة أنى إن أردت أن أعيش وأن أفهم معنى الحياة فلا بد لى أن أبحث عن هذا المعنى لا عند أولئك الذين فقدوه ويحبون أن يقتلوا أنفسهم ، بل عند أولئك الملايين الذين عاشوا فى الماضى وما يزالون يعيشون فى الحاضر ، أولئك الذين يخلقون الحياة ويتحملون أعباء حياتهم وحياتنا كذلك . فتأملت فى تلك الجموع العديدة من الناس السذج الجهلاء الفقراء الذين عاشوا ولا زالوا يعيشون ، ورأيت

شيئاً يختلف كل الاختلاف . رأيت أن كل تلك الملايين — مع الاستثناء النادر — الذين عاشوا وما زالوا يعيشون ، لا ينخرطون فى أقسامى ، و إنى لا أستطيع أن أصمهم بجهل المشكلة ، لأنهم يعرضونها بأنفسهم ، ويجيبون عنها بوضوح يدعو إلى العجب . ولم أستطع كذلك أن أحسبهم ابيقوريين ، لأن حياتهم تتألف من الحرمان والألم أكثر مما تتألف من أسباب المتع . ولا أستطيع البتة أن أعتقد أنهم يتخبطون بغير عقل فى حياة لا معنى لها ، لأنهم يفسرون كل عمل من أعمال حياتهم ، بل ويفسرون الموت نفسه . وهم يعدون قتل النفس أعظم الشرور خطراً . وبدا لى كأن الناس أجمعين لهم بمعنى الحياة دراية لا أقرها بل وأزدريها . وبدا لى كذلك أن المعرفة العقلية لا تمدنى بمعنى الحياة ، بل ولا تشملها : فى حين أن المعنى الذى تكسبه الحياةَ ملايين البشر — بل الإنسانية بأسرها — يقوم على أساس من المعرفة زائف محتقر .

إن المعرفة العقلية — كما يعرضها العلماء والحكماء — تنكر معنى الحياة ، فى حين أن الجماهير العديدة من الناس — بل الإنسانية بأسرها — تتلقى هذا المعنى فى المعرفة التى لا تمت إلى العقل بصلة . وهذه المعرفة التى لا تستند إلى العقل هى الإيمان — وهى ذلك الشىء الذى لم يسعنى إلا أن أنبذه . تلك المعرفة هى الله — الثالوث ، وخلق الدنيا فى ستة أيام ، والملائكة والشياطين ، وما إلى ذلك ، مما لا أستطيع أن أقبله ما دمت محتفظا بعقلى .

كان إذن موقفى مريعا . فقد عرفت أنى لا أستطيع أن أجد شيئا فى طريق المعرفة العقلية غير إنكار الحياة . وهناك — فى الإيمان — لا شىء غير إنكار العقل ، وهو عندى أشد استحالة من إنكار الحياة . لقد دلت المعرفة العقلية على أن الحياة شر ، وعرف الناس ذلك — فكان عليهم أن يتخلوا عن الحياة ، ولكنهم عاشوا ولا زالوا يعيشون ، ولكنى كذلك أعيش ، رغم أنى عرفت من زمان بعيد أن الحياة خلو من المعنى وأنها شر مستطير . وأظهر لى الإيمان أنى لكى أفهم معنى الحياة لا بد لى أن أطرح العقل جانبا — والعقل هو الشىء نفسه الذى يتطلب وحده إدراك ما فى الحياة من معنى .

— ٩ —

وهنا ينشأ التناقض ، ولم أجد له سوى مخرجين . إما أن يكون ذلك الذى سميته العقل

غير معقول — كما ظننت — أو أن يكون ذلك الذى حسبته غير معقول معقولا — ولو إلى حد — وليس كما ظننت . وبدأت أحقق الحجج التى كنت أؤيد بها معرفتى العقلية .

وحققت الحجج التى تؤيد المعرفة العقلية فألفيتها صحيحة جدا . ولم أجد مناصاً من النتيجة التى وصلت إليها وهى أن الحياة لا شىء ، ولكنى لمست موضعا من مواضع الخطأ ، وذلك أن تفكيرى لم يكن متفقا مع السؤال الذى قدمته . كان سؤالى « لماذا أعيش ، أى ما النتيجة الحقيقية الثابتة التى تنجم عن حياتى الوهمية الزائلة — ما معنى وجودى المحدود فى هذا العالم غير المحدود ؟ » ولكى أجيب عن هذا السؤال درست الحياة .

وجلىٌّ أن حل جميع مشكلات الحياة الممكنة لا يمكن أن يقنعنى . لأن سؤالى — برغم أنه بدا بسيطا فى أول الأمر — كان يتطلب ضمنا تفسير المحدود فى حدود اللامحدود .

سألت نفسى : « ما معنى حياتى فيما وراء الزمان والمكان والسبب ؟ » — وأجبت عن هذا السؤال : « ما معنى حياتى فى حدود الزمان والمكان والسبب ؟ » فكانت النتيجة أنى أجبت — بعد جهد كبير من الفكر « لا شىء » .

وكنت فى تفكيرى دائما أوازن ( ولم أستطع غير ذلك ) بين المحدود والمحدود ، أو بين اللامحدود واللامحدود . ولكنى من أجل هذا السبب بلغت النتيجة التى لا مناص منها : وهى أن القوة هى القوة ، والمادة هى المادة ؛ والإرادة هى الإرادة ، واللامحدود هو اللامحدود ، والعدم هو العدم — وذلك كل ما أمكن أن أصل إليه .

فكان هذا شبيها بما يحدث فى علوم الرياضة ، حينما يفكر المرء فى حل معادلة فيجد أنه يصل إلى التطابق . سلسلة التفكير سليمة ، ولكنها تنتهى إلى أن ا = ا أو س = س أو ص = ص . وحدث لى نفس الشىء فى تفكيرى فيما يتعلق بمسألة معنى الحياة . فإن الإجابات التى قدمتها العلوم جميعا لهذا السؤال انتهت كلها بالتطابق .

وفى الحقيقة أن المعرفة العلمية البحتة — تلك المعرفة التى تبدأ كما بدأ ديكارت ، بالشك المطلق فى كل شىء — تنبذ كل معرفة تقوم على أساس الإيمان ، وتبنى كل شىء من جديد على أساس قوانين الفكر والتجربة ، ولا تستطيع أن تجيب عن مشكلة الحياة إلا بما حصلت عليه : وهو جواب غير محدود . ولم يبدُ لى إلا أول الأمر فقط أن المعرفة تقدم لنا جوابا

قاطعا — هو جواب شو بنهور : إن الحياة خلو من المعنى و إنها شر . ولكنى عندما أنعمت النظر فى الموضوع أدركت أن هذا الجواب لم يكن حاسما ، و إنما هو شعورى الذى حسبه كذلك . أما إن عبرنا عن الجواب تعبيرا صحيحا ، كما فعل البراهميون وسليمان وشو بنهور ، فهو لا شك غير محدود ، أو هو متطابق مع السؤال ( س = س والحياة عدم ) . ولذا فالمعرفة الفلسفية لا تنكر شيئا ، ولكنها تجيب بأنها لا تستطيع أن تجد للسؤال حلا — وأن الحل عندها لا يفتأ غير محدود .

ولما أدركت هذا أدركت أنه يستحيل على المرء أن يبحث فى المعرفة العقلية عن جواب لسؤالى ، كما أدركت أن الجواب الذى تقدمه المعرفة العقلية إن هو إلا إشارة إلى أن المرء لا يستطيع أن يظفر بجواب إلا إذا وضع السؤال فى صيغة أخرى ، ولا بد أن يتضمن السؤال العلاقة بين المحدود واللامحدود . وفهمت أن الإجابات التى يقدمها لنا الإيمان — مهما تكن ملتوية بعيدة عن العقل — لها ميزة كبرى ، وهى أنها تدخل فى كل جواب علاقة بين المحدود واللامحدود ، وهى العلاقة التى لا يمكن أن يكون لنا بغيرها حل .

ومهما تكن الصيغة التى وضعت فيها سؤالى فإن هذه العلاقة كانت دائما تظهر فى الجواب . كيف لى أن أعيش ؟ — وفقا لناموس الإله . ما النتيجة الحقيقية التى تنجم عن حياتى ؟ — العذاب الأبدى أو النعيم الأبدى . ما معنى الحياة الذى لا يقضى عليه الموت ؟ — الاتحاد مع الله الدائم : السماء .

ولذا فإلى جانب المعرفة العقلية التى بدت لى كأنها المعرفة الوحيدة ، اضطررت إلى الاعتراف بأن الإنسانية الحية كلها لها نوع من المعرفة غير المعقولة — تلك هى الإيمان الذى يجعل الحياة ممكنة . وقد بقى الإيمان فى عينى غير معقول كما كان من قبل ، غير أنى لم يسعنى إلا أن أقر بأنه يقدم للإنسانية جوابا عن مشكلة الحياة ، وأنه — لذلك — يجعل الحياة ممكنة . إن المعرفة التى تنطبق على العقل قد انتهت بى إلى الاعتراف بأن الحياة لا معنى لها — وقد وقفت حياتى عن المضىّ فى المسير وأردت أن أقضى عليها . ولما تطلعت حولى إلى الإنسانية كلها رأيت أن الناس يعيشون ويعلنون صراحة أنهم يعرفون للحياة معناها . ثم نظرت إلى نفسى فرأيت أنى كنت أعيش عند ما كنت أعرف للحياة معنى . فإن الإيمان كان قد

أكسب الحياة عندى معنى كما أكسبها عند غيرى ، وجعل الحياة ممكنة .

ثم نظرت كذلك إلى أهل البدان الأخرى ، و إلى معاصرىّ ، و إلى سابقيهم ، فرأيت نفس الشىء . رأيت أنه — مذ بدأ الإنسان — إذا كانت هناك حياة فإن الإيمان هو الذى جعلها ممكنة ، وأن المبادىء الأساسية للإيمان واحدة فى كل زمان ومكان .

ومهما يكن ذلك الإيمان ، ومهما تكن الإجابات التى يقدمها ، وأيًّا كان الإنسان الذى تُقدم له الإجابات ، فإن هذه الإجابات جميعا تكسب حياة الإنسان المحدودة معنى غير محدود ، معنى لا تهدمه الآلام والحرمان والموت . ومعنى ذلك أننا فى الإيمان وحده نستطيع أن نجد للحياة معنى أو أن نجدها ممكنة . فما هو هذا الإيمان إذن ؟ لقد فهمت أن الإيمان ليس مجرد « اتضاح الخفى » أو ما يشبه ذلك ، وليس إلهاما ( إنما ذلك يحدد جانبا واحداً من جوانب الإيمان ) ، وليس هو العلاقة بين الإنسان والله ( إذ أن المرء عليه أولا أن يحدد الإيمان ، ثم يحدد بعد ذلك الله ، ولا يحدد الإيمان عن طريق الله ) . ليس الإيمان هوالموافقة على ما قيل لنا من قبل ( كما يُفرض فيه فى أكثر الأحيان ) . إنما الإيمان هو معرفة معنى الحياة الإنسانية ، الذى يترتب عليه أن يُبقى الإنسان على حياته ولايقضى عليها . الإيمان قوة الحياة . وما دام الإنسان حيا فلا بد له أن يعتنق عقيدة من العقائد . فإذا لم يعتقد المرء أنه لابد أن يعيش من أجل شىء ما ، مابقى على وجه الأرض . و إذا لم ير و يدرك الطبيعة الوهمية للعالم المحدود ، فإنه يعتقد فى هـذه الطبيعة الوهمية أما إذا أدركها فلا بد له أن يعتقد فى اللامحدود . إنه لا يستطيع العيش بغير إيمان .

واستعرضت كل ما بذلت من جهد عقلى فأصابنى الرعب والفزع . فقد اتضح لى الآن أن المرء لكى يستطيع الحياة لا بد له إما أن يغفل رؤية اللانهائى ، أو أن يفسر الحياة تفسيرا يربط المحدود باللامحدود . وقد كان لى من قبل هذا التفسير ؛ ولكنى طالما اعتقدت فى المحدود لم أكن بحاجة إلى هـذا التفسير ، و بدأت أحققه بالعقل . وفى ضوء العقل تبدد تفسيرى السابق كله . ثم جاء الوقت الذى كففت فيه عن الاعتقاد فى المحدود . و بدأت بعدئذ أشيد على أسس عقلية — مما لدىّ من معارف — تفسيرا يكسب الحياة معنى ، غير أنى لم أستطع أن أشيد شيئا ما . فإنى — وخير أصحاب العقول البشرية — وصلنا إلى هذه

النتيجة : وهى أن س = س ، ودهشنا لهذه النتيجة ، برغم أنه لم يكن بالإمكان أن ينجم غيرها .

ماذا كنت أفعل عند ما كنت أبحث عن الجواب فى العلوم التجريبية ؟ كنت أحب أن أعرف لماذا أعيش ، ولهذا الغرض درست كل ما هو خارج عن نفسى . وبدهى أنى قد أعرف الكثير ، ولكنى لن أعرف شيئا مما أردت معرفته .

ثم ماذا كنت أفعل عند ما كنت أبحث عن الجواب فى المعرفة الفلسفية ؟ كنت أدرس آراء أولئك الذين ألفوا أنفسهم فى مثل موضعى ، يعوزهم الجواب عن هذا السؤال : « لماذا أعيش ؟ » وبدهى أنى لم أكن لأعلم شيئا غير الذى علمت من نفسى — وذلك أنه لا يمكن معرفة شىء ما .

من أنا ؟ — جزء من اللانهائى . فى هذه الكلمات القليلة تنحصر المشكلة بأسرها .

أمن الجائز أن الإنسانية لم تضع هذا السؤال لنفسها إلا منذ الأمس فقط ؟ وهل لم يستطع أحد قبلى أن يضعه لنفسه — وهو سؤال جد بسيط ، يقفز إلى لسان كل طفل عاقل ؟

لا شك أن هذا السؤال قد وجد مذ نشأ الإنسان ، ومن الطبيعى لحل هذا السؤال مذ ظهر الإنسان ألا يكفى أن نقارن المحدود بالمحدود أو غير المحدود بغير المحدود . ومذ بدأ الإنسان على وجه البسيطة أخذ يبحث عن العلاقة بين المحدود واللامحدود وحاول أن يعبر عنها .

ونحن نخضع للبحث المنطقى كل الآراء التى تتعلق بالصلة بين المحدود واللامحدود ، أو بإيجاد معنى الحياة — وأقصد فكرة « الله » أو الإرادة أو الخير . وكل هذه الآراء لا تستطيع أن تقف فى وجه النقد العقلى .

ومما يفزع له المرء ، بل مما يسخر منه ، أننا — كالأطفال — نفكك الساعة أجزاء ، فخورين راضين عن أنفسنا ، ثم نستخرج الزنبرك ، ونجعل من الساعة ألعوبة ، وندهش بعدئذ لأن الساعة لا تسير .

من الضرورى ومما له قيمة كبرى أن نوفق إلى حل للتناقض القائم بين المحدود واللامحدود ، وأن نوفق إلى جواب لمسألة الحياة حتى تبيت الحياة ممكنة . وذلك هو الحل

الوحيد الذى نلقاه فى كل مكان وكل زمان ، و بين جميع البشر : وهو حل يتحدر من الأزمنة التى تتوارى عن أبصارنا فيها حياة الإنسان ، حل بلغ من العسر أننا لا نستطيع أن نؤلف ما يشبهه — ونحن نهدم هـذا الحل مستخفّين لـكى نضع السؤال عينه مرة أخرى ، وهو السؤال الطبيعى لـكل امرىء ، والذى ليس لدينا له جواب .

إن فـكرة الإله الذى ليس له نهاية ، وقدسية الروح ، والعلاقة بين الله وشئون البشر ، ووحدة الروح ووجودها ، وفـكرة الإنسان عن الخير والشر فى الأخلاق — كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية ، وهى تلك الأفكار التى لا يمكن لى ولا للحياة بغيرها البقاء . ومع ذلك فقد نبذت جهد الإنسانية كلها بأسره وأردت أن أصوغها بنفسى و بأسلوبى الخاص من جديد .

إننى لم أفـكر على هذا النمط فى ذلك الحين ، ولـكن جراثيم هذه الأفكار بدأت تدب فى نفسى . لقد أدركت فى أول الأمر أن موقفى وموقف شوبنهور وسليمان — برغم ما لدينا من حكمة — سخيف غير مستساغ : أننا نرى الحياة شرا ، ومع ذلك نواصل الحياة . وجلى أن هذا أمر شاذ . لأن الحياة إن كانت غير معقولة ، و إن كنت مغرما بأحكام العقل ، إذن فلا بد من هدم الحياة ، و إذن فلن يكون هناك من يتحداها . ثم إنى أدركت أن كل ما تقدم من تعليل عقلى يدور فى حلقة مفرغة ، كالعجلة تنفك عن الترس . ومهما ناقشنا وأجدنا النقاش فإننا لا نستطيع أن نظفر بجواب للسؤال ، غير أن س = س دائما ، ولذا فالأرجح أننا سلكنا طريقا خاطئا . ثم بدأت كذلك أدرك أن الأجوبة التى يقدمها الإيمان تحتوى على أعمق حكمة إنسانية ، وأنى لا أملك حق إنكارها بحجة العقل ، وأن تلك الأجوبة هى وحدها التى تجيب عن مشكلة الحياة .

— ١٠ —

أدركت ذلك ، غير أن إدراكى له لم يصلح لى الأمور . كنت الآن على استعداد لقبول أى ضرب من ضروب الإيمان ، إذا لم يتطلب منى ذلك إنكاراً مباشراً للعقل — و إلا كان مغالطة من المغالطات . فدرست البوذية والإسلام من الـكتب ، ودرست أكثر من ذلك المسيحية من الـكتب وممن حولى من الناس .

وكان من الطبيعى أن ألتفت أول الأمر إلى العقائد الثابتة التى تسود أبناء طبقتى ، وأن ألتفت إلى العلماء : وهم علماء الكنيسة والرهبان ، والمحدثين من علماء الدين ، بل وإلى الإنجيليين الذين يعترفون بالخلاص عن طريق العقيدة فى الفداء . وتشبثت بأهداب أصحاب هذه العقيدة وأخذت أسألهم عن عقائدهم وفهمهم لمعنى الحياة .

ومع أنى تهاونت كثيرا ، وتجنبت كل ما يدعو إلى النزاع ، فإنى لم أستطع أن أقبل عقيدة هؤلاء الناس . فقد رأيت أن ما يزعمون أنه عقيدتهم لا يوضح معنى الحياة بل يزيده غموضا ، وأنهم هم أنفسهم يؤكدون عقيدتهم لا ليجيبوا عن تلك المشكلة الحيوية التى أدت بى إلى الإيمان ، ولكن لأغراض أخرى غريبة عنى .

وإنى لأذكر الشعور الأليم بالخوف من أن أعود إلى حالتى السابقة من اليأس — بعد ذلك الأمل الذى كان يعاودنى — كلما اتصلت بهؤلاء الناس .

كلما زادونى إيضاحا عن عقائدهم ، اتضحت لى أخطاؤهم وأدركت أن أملى فى أن أجد فى عقيدتهم تفسيراً لمعنى الحياة أمل واهٍ لا رجاء فيه .

لم ينفّرنى منهم أنهم فى عقائدهم يمزجون كثيراً مما ليس ضروريا أو معقولا بحقائق المسيحية التى كانت دائما تحت يدى . إنما نفّرنى منهم أن حياتهم كانت كحياتى مع هذا الفارق الوحيد — أن مثل هذه الحياة لم تتفق والمبادىء التى يبثونها فى تعاليمهم . وأحسست بجلاء أنهم يخدعون أنفسهم ، وأنهم — مثلى — لم يجدوا للحياة معنى غير أن يحيوا ما دامت الحياة مستولين على كل ما تمتد إليه أيديهم . رأيت ذلك لأنهم لو وجدوا معنى يهدم الخوف من الخسارة ومن الألم والموت لما خشوا هذه الأشياء . ولكنهم — أقصد أولئك الذين يعتقدون فى الدين من دائرتنا — كانوا مثلى يعيشون فى كفاية ووفرة ويحاولون أن يحتفظوا بما لديهم أو أن يضاعفوه ، يخشون الحرمان والألم والموت . وهم كذلك — مثلى ومثل كل من لا يعتقدون فى الدين — كانوا يعيشون لإشباع رغباتهم ، ويحيون حياة سيئة ، إن لم تكن أسوأ من الحياة التى يحياها الكافرون .

ولم تنهض حجة واحدة بإقناعى بصدق إيمانهم . وما كنت لأقتنع إلا بعمل يدل على أنهم يرون فى الحياة معنى لا يجعلهم يجزعون مما كنت أجزع أنا منه — الفقر والمرض

والموت . ولـكنى لم ألمس مثل هذا العمل بين مختلف المتظاهرين بالدين من أبناء طائفتى . بل على العكس من ذلك كنت أرى أشد الناس كفراً من أبناء طبقتى يقومون بهذا العمل[1]، ولم أر قط أحداً من المتظاهرين بالدين يقوم به .

فأدركت أن عقيدة هؤلاء الناس لم تكن ذلك الإيمان الذى كنت أبحث عنه ، وأن إيمانهم ليس بالإيمان الصادق ولـكنه عزاء أبيقورى فى الحياة .

وأدركت أن تلك العقيدة قد تنفع كسلوى أو على الأقل كموضوع ينصرف إليه ذهن رجل كسليمان يعض بنان الندم وهو على فراش الموت ، ولـكنها لا تنفع الـكثرة الـكاثرة من بنى الإنسان الذين لا يُطلب إليهم أن يلهوا وهم يستهلـكون إنتاج غيرهم ، وإنما يُطلب إليهم أن يخلقوا الحياة نفسها .

ولـكى تستطيع الإنسانية جمعاء أن تعيش ، وأن تواصل العيش وهى تنسب إلى الحياة معنى من المعانى ، لا بد لهذه الملايين من عقيدة غير هذه ، ولا بد لهم من معرفتها معرفة صحيحة . حقا أننى لم أقتنع بوجود العقيدة لأننى أنا وسليمان وشوبنهور لم نقتل أنفسنا ، بل اقتنعت بوجودها لأن تلك الملايين من البشر قد عاشت وما تزال تعيش ، وقد حملت سليمان كما حملتنا فوق تيار حياتهم .

وبدأت أقترب من المؤمنين من الفقراء السذج الأميّين : الحجاج والرهبان والطائفيين والفلاحين . إن عقيدة هؤلاء العامة هى نفسها العقيدة المسيحية التى يعلنها أشباه المؤمنين من دائرتنا . فقـد وجدتُ لديهم كذلك قدراً كبيراً من الخرافة ممزوجا بحقائق المسيحية . غير أن الفارق بينهم و بيننا هو أن الخرافة للمؤمنين منا كانت نافلة ليس لهـا ضرورة ولم تكن متفقة والحياة التى نحياها ، فهى عندنا ضرب من ضروب اللهو الأبيقورى وحسب . فى حين أن خرافة المؤمنين من جموع العمال كانت تتفق كل الاتفاق وحياتهم حتى إنه ليستحيل أن نتصورهم بغير تلك الخرافة ، فهى شرط لازم لحياتهم . إن حياة المؤمنين من طبقتى كلها

---

(١) هنا إشارة إلى الحركة الثائرة التى كانت تسود فى ذلك الحين ، وشعارها « عودوا إلى الشعب » ، تلك الحركة التى كان يخاطر ويضحى فيها بالبيت والمِلـْك بل وبالحياة نفسها نفر غير قليل من الشبان والشواب ، مدفوعين بعوامل شبيهة جدا بما كان يعتقد فيه تولستوى فى ذلك الحين من أن الطبقات العليا من المجتمع طفيلية تعيش على أود الناس الذين يعولونهم .

تناقض عقيدتهم ، فى حين أن حياة العمال كلها تأييد لمعنى الحياة الذى أمدتهم به عقيدتهم . فشرعت أنعم النظر فى حياة هؤلاء الناس وفى عقيدتهم . وكلما أنعمت النظر زدت اقتناعاً بأنهم صادقون فى عقيدتهم ، وأن العقيدة ضرورية لهم ، وهى وحدها تكسب حياتهم معنى ، وتجعل الحياة ممكنة لهم . وعلى نقيض ما شهدت بين أبناء طائفتى — حيث تمكن الحياة بغير إيمان ، وحيث لا تكاد تجد واحداً فى الألف يعترف بأنه مؤمن — رأيت أنك لا تكاد تجد رجلا واحداً فى الألف بين هؤلاء لا يعتقد فى الدين . وعلى نقيض ما رأيت بين أبناء دائرتى ، حيث تُقضى الحياة كلها فى خمول ولهو وسخط ، فإن حياة هؤلاء الناس كلها تُقضى فى العمل الثقيل وهم راضون عن الحياة . وعلى نقيض الطريقة التى يعارض بها أبناء دائرتنا القدر ويشكونه بسبب ما يصيبهم من حرمان وآلام ، فإن هؤلاء الناس يقبلون المرض والأحزان دون ارتباك أو معارضة ، بل بيقين هادىء ثابت بأن كل شىء ينطوى على الخير . وعلى نقيضنا نحن الذين كلما ازددنا حكمة قل إدراكنا لمعنى الحياة ورأينا فى الألم والموت سخرية وشرا ، يعيش هؤلاء القوم ويتألمون ، ويقابلون الموت والألم بهدوء بل وبسرور فى أكثر الحالات . نحن نحسب أن الموت الهادىء الذى لا يحوطه الفزع واليأس نادر جدا بين أفراد الطائفة التى ننتمى إليها ، وهم على نقيض ذلك يرون أن الموت الذى تكتنفه المشاق وثورة النفس والشقاء أمر نادر جدا . وهؤلاء الناس الذين يعوزهم كل ما نراه ويراه سليمان الخيرَ الوحيد فى الحياة — وهم مع ذلك ينعمون بأكبر قسط من السعادة — جمهور كبير . وأنعمت النظر فيما حولى ، وتدبرت حياة أكثر الناس فى الماضى والحاضر . ورأيت أن أمثال هؤلاء الناس الذين يدركون معنى الحياة ويستطيعون أن يحيوا وأن يموتوا ، لا يعدون بالآحاد أو العشرات أو المئات أو الألوف بل يعدون بالملايين . وكلهم — على اختلاف عاداتهم وعقولهم وتعليمهم ومراكزهم اختلافا كبيرا — متشابهون . وهم يختلفون عنى كل الاختلاف ، فهم يعلمون ما أجهل من معنى الحياة والموت ، ويعملون فى هدوء ، ويتحملون الحرمان والآلام ، ويعيشون ويموتون ، ولا يرون فى ذلك عبثا بل خيراً ونعمة .

وتعلمت أن أحب هؤلاء الناس . وكلما عرفت حياتهم — حياة الأحياء منهم والأموات ، ومن قرأت عنهم أو سمعت ، ازددت حبا لهم وازدادت حياتى يسراً . وبقيت على ذلك قرابة العامين ، ثم اعترانى تغيير كنت أتأهب له من زمان بعيد ، ولم تبرح نفسى قط بذرة التفكير

فيه . وانتهيت إلى أن حياة الفئة التى أنتمى إليها — الأغنياء والعلماء — ليست كريهة فحسب ، بل فقدت كل ما لها من معنى فى عينىّ . وتبدّت لى كل أعمالنا ومناقشاتنا وعلومنا وآدابنا تحت ضوء جديد . فهمت أن ذلك كله إن هو إلاّ غرور بالنفس ، وأنه يستحيل على المرء أن يجد فيه أى معنى من المعانى . فى حين أن حياة الناس العاملين كلهم — وأقصد بهم كل من ينتجون الحياة من بنى الإنسان — قد ظهرت لى بمعناها الصحيح . حينئذ أدركت أن حياتهم هى الحياة نفسها ، وأن المعنى الذى يكسو هذه الحياة معنى صادق : فتقبلته راضيا .

— ١١ —

ولما تذكرت كيف أن هذه العقائد نفسها كانت تنفّرنى وتبدو لى خلوا من المعنى حينما يُقِرُّ بها قوم تتعارض حياتهم معها ، وكيف أن هذه العقائد نفسها تجذبنى وتبدو لى معقولة حينما أرى الناس يعيشون وفقا لها ، فهمت لماذا نبذت تلك العقائد فى أول الأمر ووجدتها عديمة المعنى ، ثم قبلتها الآن وألفيتها مليئة بالمعانى . أدركت أنى كنت مخطئا كما أدركت سبب الخطأ . لقد أخطأت لا لأنى أسأت التفكير فحسب ، بل لأنى عشت عيشة سيئة ، وذلك أشد السببين خطرا . أدركت أن الحقيقة لم تخف عنى لأنى أخطأت التفكير بمقدار ما خفيت عنى بسبب حياتى نفسها التى قضيتها فى ظروف شاذة تلمست فيها إشباع رغباتى على طريقة أبيقور . أدركت أن سؤالى عن حقيقة حياتى وجوابى على ذلك بأنها شر أمر جد صحيح . وموضع الخطأ أن الجواب يشير إلى حياتى وحدها ، ولكنى نسبته إلى الحياة بجملتها . سألت نفسى ما حياتى ، وظفرت بهذا الجواب : شر وعبث . وحقا إن حياتى — وهى حياة الاستهتار فى الشهوات — كانت شرا وكانت خلواً من المعنى . ولذا فإن هذا الجواب : « الحياة شر وعبث » كان يشير إلى حياتى فقط ، لا إلى حياة البشر كافة . أدركت هذه الحقيقة التى وجدتها فيما بعد فى الكتاب المقدس ، وهى « أن الناس يحبون الظلام أكثر مما يحبون الضوء لأن أعمالهم شريرة . لأن كل من يفعل الشر يكره الضوء ولا يأتى إليه خشية اللوم على عمله » . ورأيت أنه لكى يفهم المرء معنى الحياة لا بد أولا ألاّ تكون الحياة بغير معنى وألا تكون شرا ، ثم يُطلب إلى العقل أن يفسرها . وأدركت لماذا حُمتُ طويلا حول

حقيقة واضحة كل هذا الوضوح ، وأن الإنسان إذا كان يريد أن يفكر وأن يتكلم فى حياة البشر لا بد له أن يفكر وأن يتكلم فى تلك الحياة لا فى حياة أحد المتطفلين على الحياة . كانت هذه الحقيقة دائما صادقة كما أن مجموع اثنين واثنين أربعة حقيقة صادقة . ولكنى لم أعترف بها من قبل ، لأنى إن اعترفت بأن مجموع اثنين واثنين أربعة فلا بد لى كذلك من الاعتراف بأنى رجل خبيث . وكان إحساسى بأنى رجل طيب أكثر أهمية وضرورة عندى من أن يكون مجموع اثنين واثنين أربعة ولما أحببت الناس وكرهت نفسى واعترفت بالحقيقة اتضح لى كل شىء .

ماذا لو أن جلادا يقضى حياته كلها فى تعذيب نفسه وحز رقاب الناس — أو لو أن مدمنا على الخمر لا رجاء فيه ، أو مجنونا ينفق حياته فى حجرة مظلمة دنسة ويتصور الموت فى تركها — ماذا لو سأل نفسه مثل هذا الرجل « ما الحياة ؟ » لا شك أنه لا يظفر بجواب عن هذا السؤال غير أن الحياة أكبر الشرور . ويكون جواب المجنون جد صحيح — ولكن فيما يختص به وحده . ثم ماذا لو كنت أنا ذلك المجنون ؟ وماذا لو كنا نحن الأغنياء الخالين كهؤلاء المجانين ؟ لقد أدركت أننا حقا أمثال هؤلاء المجانين . أو على الأقل لقد كنت أنا كذلك بغير شك .

حقا إن الطائر قد خُلق ليطير ويجمع طعامه ويبنى عشه ، فإن رأيتُ طائراً يفعل ذلك ابتهجت لسروره . والشاة والأرنب والذئب قد خلقت لتطعم نفسها وتتناسل وتطعم صغارها ، فإن فعلت ذلك أيقنت يقينا ثابتا أنها سعيدة وأن حياتها حياة معقولة . إذن فما ينبغى للإنسان أن يفعل ؟ إنه كذلك ينبغى له أن ينتج ما يعيش عليه كما يفعل الحيوان ، مع هذا الفارق : وهو أنه يهلك لو قام بذلك منفردا ، فواجبه أن يحصل على طعامه لا لنفسه فقط ولكن للجماعة كلها . فإن فعل ذلك أيقنت يقينا لا يتطرق إليه الشك أنه سعيد وأن حياته معقولة . ولكنى أسأل نفسى : ماذا فعلت خلال السنوات الثلاثين التى مضت من حياتى التى أحمل تبعتها ؟ إننى لم أنتج لنفسى ما يقيم أودها ، وما كان أبعدنى من أن أنتج شيئا للمجموع . لقد عشت متطفلا ، وعند ما سألت نفسى : ما فائدة حياتى ؟ أجبتها : لا فائدة منها . فإن كان معنى الحياة الإنسانية ينحصر فى عولها فكيف لى إذن — وقد شغلت نفسى ثلاثين عاما لا فى عول الحياة بل فى هدمها فى نفسى وفى الآخرين — كيف لى أن أحصل على جواب

غير أن حياتى خلو من المعنى وأنها شر ؟ ... ولقد كانت فعلا تتصف بخلوها من المعنى كما تتصف بالشر .

إن حياة العالم تسير وفقا لإرادة ما — أقصد أن إرادة ما تحقق غرضها بحياة العالم بأسره وبحياتنا الخاصة . ولكى يأمل المرء أن يدرك معنى تلك الإرادة يجب عليه أولا أن يطيعها بأن يعمل ما يُطلب إلينا . فإذا أنا لم أعمل ما يُطلب إلىّ فلن أدرك قط المطلوب ، بله أن أدرك المطلوب منا جميعا ومن العالم بأسره .

إذا التقطنا من عرض الطريق متسولا جائعا عارى الجسد ، وأتينا به إلى بناء يتصل بعمارة فخمة ، وأمددناه بالطعام والشراب ، ثم أرغمناه على أن يحرك مقبضا إلى أعلى و إلى أسفل ، فإن عليه — من غير شك — قبل أن يناقش فى سبب التقاطه وقبل أن يسأل لماذا يتحتم أن يحرك المقبض ، أو إذا كان البناء كله حسن الترتيب ، أن يحرك المقبض . فإذا حركه أدرك أنه يدير مضخة ، وأن المضخة تستنبط الماء ، وأن الماء يروى أحواض الحديقة . ثم يساق من مكان المضخة إلى مكان آخر يجمع فيه الثمر ويدخل السرور على قلب سيده . و بتدرجه من العمل الوضيع إلى العمل الرفيع يزداد علما بتنظيم العمارة ، وما دام يأخذ منها بنصيب فلن يفكر فى السؤال عن سبب وجوده هناك ، ولا شك أنه لن يلقى على سيده لوما .

و إذن فإن أولئك الذين يطيعون إرادة مولاهم ، أولئك السذج الجهال من العامة ، الذين نحسبهم كالأنعام ، لا يلقون على المولى لوما . أما نحن الحكماء فإنا نأكل طعام المولى ولا نعمل وفقا لإرادته ، و بدلا من أداء العمل ترانا نجلس فى حلقة ونتناقش متسائلين « لماذا يُحرّك ذلك المقبض ؟ أليس ذلك سخف ! » وهكذا نصل إلى قرار . وهكذا قررنا أن المولى غبى أو أنه غير موجود ، وأننا حكماء ، إلاّ أنا نحس بأننا عديمو النفع فيجب أن نقضى على أنفسنا بطريقة ما .

## — ١٢ —

وقد ساعدنى إدراكى للخطأ فى المعرفة العقلية على تحرير نفسى من الانزلاق فى سبيل التعليل العقلى متراخياً . وأدى بى الاعتقاد فى أن معرفة الحق لا يمكن أن تتحقق إلا بالحياة

نفسها إلى شك فى صحة حياتى . ولم ينجنى من هذا الموقف إلا قدرتى على انتزاع نفسى من عزلتى ورؤيتى الحياة الحقيقية للعمال السذّج ، وإدراكى أن تلك الحياة وحدها هى الحياة الحقيقية . وفهمت أنى لو أردت أن أدرك الحياة ومعناها ، ينبغى لى ألاّ أحيا حياة المتطفل ، بل لا بد لى أن أحيا حياة حقيقية وأن أتحقق منها — بعدما أتخذ لنفسى المعنى الذى تضفيه الإنسانية الحقة على الحياة و بعد أن أزج بنفسى فى تلك الحياة .

وفى غضون تلك الفترة حدث لى ما يأتى : فى خلال ذلك العام كله حينما كنت أكاد أسأل نفسى فى كل لحظة من اللحظات هل أقضى على نفسى — وتنتهى بذلك المشكلة — شنقا أو رميا بالرصاص ، فى خلال تلك الفترة كلها التى ساورتنى فيها الأفكار و بدت لى فيها تلك الملاحظات التى تحدثت عنها كان يستولى على قلبى شعور أليم ، لا أستطيع أن أصفه إلا أنه بحث عن الله .

أقول إن ذلك البحث عن الله لم يكنِ بالعقل إنما كان بالشعور ، لأن هذا البحث لم ينشأ عن تسلسل الأفكار عندى — و إنما نبع من القلب . ولقد كان شعوراً بالخوف واليتم والعزلة فى بلد غريب ، وأملا فى العون من جهة ما .

و برغم اقتناعى التام باستحالة البرهان على وجود الله ( وقد بيّن كانْتْ أن هذا البرهان مستحيل ، وفهمته تمام الفهم ) كنت أبحث عن الله ، وكنت آمل أن أجده ، وتوجهت بالدعاء — مدفوعاً بالعادة القديمة — إلى ذلك الذى أبحث عنه ولم أجده . واستعدت فى ذهنى ما أدلى به كانْت وشوبنهور من حجج تدل على استحالة البرهان على وجود الله . و بدأت أحقق هذه الحجج وأنبذها . قلت لنفسى إن « السبب » ليس فى نوعه فكرة كفكرة « الزمان » أو « المكان » . إن كنتُ موجودا ، إذن فلا بد لوجودى من سبب ، ولا بد للأسباب من مسبب . وذلك السبب الأول هو ما يسميه الناس « الله » . ووقفت قليلا عند هذه الفكرة ، وحاولت بكيانى كله أن أعترف بوجود ذلك السبب . وما إن اعترفت بوجود قوة تملكنى فى قبضتها ، حتى أحسست فى الحال أنى أستطيع أن أعيش . غير أنى سألت نفسى : « ما ذلك السبب ، أو تلك القوة ؟ وكيف لى أن أفكر فيها ؟ وما الذى يربطنى بذلك الذى أسميه « الإله ؟ » ولم تطرأ لى سوى الإجابات المألوفة فقلت « هو الخالق

والحافظ » غير أن هذا الجواب لم يقنعنى وأحسست أنى كنت أفقد فى نفسى ما كنت أحتاج إليه فى حياتى . وأصابنى الذعر وبدأت أصلى لمن كنت أبحث عنه وأدعوه أن يعينى . ولكنى كلما ازددت دعاء اتضح لى أنه لم يستمع لدعائى ، وتبين لى أنه ليس هناك من أوجه إليه الدعاء . وامتلأ قلبى باليأس من وجود الله وقلت : « رحماك ربى ! اللهم نجّنى ! اللهم إنى أسألك الهداية ! » ولكن أحداً لم يرحمنى وأحسست أن حياتى تشرف على الركود .

ولكنى كنت أعود بين الحين والحين من نواح متعددة إلى الاعتراف الأول بأنى لا يمكن أن أكون قد أتيت إلى هذا العالم بغير علة أو سبب أو معنى . لا يمكن أن أكون طائراً مهيض الجناح سقط من عشه كما أحسست بنفسى . وحتى لو كنت كذلك ، مستلقيا على ظهرى أصيح بين العشب الغزير ، لصحت لأنى أعلم أن أُمًّا حملتنى وأخرجتنى من البيضة وأدفأتنى وأطعمتنى وأحبتنى — أين تلك الأم ؟ ولو كنت مهجوراً فمن هجرنى ؟ إنى لا أستطيع أن أُخفى عن نفسى أن شخصا حملنى وأولانى حبه . فمن عسى أن يكون ؟ هل أقول ثانية هو « الله » ؟ إنه يعلم ويرى بحثى ويأسى وكفاحى .

قلت لنفسى « إنه موجود » . واعترفت بذلك لحظة واحدة ، ثم دبت فى نفسى الحياة فجأة وأحسست بإمكان الوجود وبمتعته . ولكنى عدت بعد الاعتراف بوجود الله إلى البحث عن العلاقة بينى وبينه ؛ ثم عدت إلى تصور ذلك الإله — الخالق فى ثلاثة أشخاص ، الذى أرسل ابنه المخلّص — ومرة أخرى يذوب ككتلة من الثلج هذا الإله المنفصل عن العالم وعنى ، يذوب أمام عينىّ فلا يبقى شىء ، ويجف ينبوع الحياة فى نفسى مرة أخرى ، فيستولى علىّ اليأس وأحس أن ليس لدىّ ما أفعله غير أن أنتحر . وأسوأ ما فى الأمر أنى أحسست أنى لا أستطيع الانتحار .

ولم أبلغ هذه الحالة مرة أو مرتين أو ثلاثا ، بل عشرات المرات ومئاتها : أشعر أولا بالسرور والحيوية ، ثم باليأس وإدراك استحالة العيش .

أذكر أنى مرة فى باكورة الربيع كنت وحيدا فى الغابة أستمع إلى ما يتردد فيها من صوت . استمعت وفكرت فى نفس الموضوع الذى كنت أفكر فيه دائما خلال تلك السنوات الأخيرة الثلاث . فكنت أبحث عن الله مرة أخرى .

قلت لنفسى : « حسنا ، ليس هناك إله ، ليس هناك من ليس من خيالى بل حقيقة واقعة كحياتى كلها . إنه غير موجود ، وليس هناك من المعجزات ما يثبت وجوده ، لأن المعجزات من نسج خيالى فوق أنها غير معقولة .

ثم سألت نفسى : « من أين لى فكرتى عن الله ، ذلك الذى أبحث عنه » وارتفعت فى نفسى مرة أخرى أمواج الحياة البهيجة عند ما خطر لى هذا السؤال . ودبت الحياة فى كل ماحولى واكتسب معنى ما . غير أن سرورى لم يدم طويلا . واستمر ذهنى فى حركته .

قلت لنفسى: « إن فكرة الإله ليست بالإله . إنما الفكرة شىء يحل بنفسى . وفكرة الله شىء أستطيع أن أثيره وأستطيع أن أتجنب إثارته فى نفسى . وليس هذا ما أبحث عنه . إنما أبحث عن ذلك الذى بغيره لا تكون حياة » . وبدأ كل ما حولى وما فى نفسى يموت مرة أخرى . وأردت مرة أخرى أن أقتل نفسى .

ولكنى عدت وحدقت ببصيرتى فى نفسى ، وفيما كان يدور بخلدى ، وتذكرت تلك المئات من المرات التى نضب فيها عندى معين الحياة ثم عادت إلىّ بعدها الحياة كل مرة . وتذكرت أنى إنما عشت فى تلك الأوقات وحدها التى كنت أعتقد فيها فى وجود الله . وكما كان الأمر من قبل ، هو كذلك اليوم . يكفى أن أدرك وجود الله لكى أعيش . ويكفى أن أنساه أو ألاّ أعتقد فيه لكى أموت .

ما هذا الإحياء وما ذلك الموت ؟ إننى لا أعيش إذا فقدت العقيدة فى وجود الله . ولولا أننى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمان بعيد . إننى أحيا — بل وأحيا حقيقةً — حينما أحس به وأبحث عنه فقط . وصاح من داخلى صوت يقول : « عن أى شىء تبحث بعد هذا . هذا هو . إنه ذلك الذى لا يستطيع المرء بدونه أن يعيش . إن معرفة الله والحياة شىء واحد . أو قل الله هو الحياة » .

« عِشْ باحثا عن الله ، وإذن فلن تعيش بدون الله » . وقد أضاء كل ما بنفسى وكل ما حولى أكثر من أى وقت سبق ، ولم يبارحنى الضوء بعد ذلك .

ونجوت من الانتحار . ولا أستطيع أن أقول متى أو كيف تم هذا الانقلاب . وكما أن دافع الحياة فى نفسى قد تلاشى تدريجا وبدرجة غير محسوسة حتى استحالت علىّ الحياة

وأردت إنهاءها بالانتحار ، فكذلك عاد إلىّ هذا الدافع إلى الحياة تدريجا وبدرجة غير محسوسة . ومن العجيب أن قوة الحياة التى عادت إلىّ لم تكن مستحدثة — بل قديمة جدا — وهى تلك القوة عينها التى سيّرتنى فى باكورة حياتى .

وعدت تماما إلى الحالة التى كنت عليها فى صباى الباكر وفى شبابى . عدت إلى العقيدة فى تلك ( الارادة ) التى أوجدتنى والتى تتطلب منى شيئا ما . عدت إلى الاعتقاد فى أن الهدف الرئيسى الوحيد لحياتى هو إصلاح نفسى — أى أن أعيش وفقا لتلك ( الارادة ) . وعدت إلى الاعتقاد فى أنى أستطيع أن أجد التعبير عن تلك الارادة فيما أنتجته الانسانية لارشادها — وهو ما خفى على فى الماضى البعيد : أى أنى عدت إلى الاعتقاد فى الله ، وفى الكمال الخلقى ، وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة . ولم يكن هناك سوى فارق واحد ، وهو أننى كنت فيما مضى أقبل كل ذلك بغير وعى منى ، فى حين أنى الآن أعلم أنى بدونه لا أستطيع أن أعيش .

إن ما حدث لى شبيه بما يأتى : لكأنى وُضعت فى زورق ( ولا أدرى متى كان ذلك ) دُفع بى من ساحل مجهول ، ثم أطلعت على اتجاه الساحل المقابل . و بين يدى مجاديف لم أمرن على استعمالها وقد تُركت وحدى . فجدفت جهد استطاعتى وانطلقت إلى الأمام ، ولكنى كلما تقدمت نحو منتصف النهر زادت سرعة التيار وحملنى بعيدا عن مرماى ، وقابلت كثيراً من أمثالى حملهم كذلك التيار . وقل من المجدفين من واصل التجديف ، ومنهم من طرح عنه المجاديف كلية . ومن الزوارق ما كان ضخما عظيما يحمل ركابا عديدين ، ومن الناس من كان يكافح فى وجه التيار ، ومنهم من استسلم له . وكلما شططت فى المسير ورأيت تقدم أولئك الذين كانوا على سطح الماء فى اتجاه التيار ، نسيت الاتجاه الذى وجهته . وفى وسط التيار تماما بين زحام الزوارق والأفلاك التى كان يدفعها التيار ضللت وجهتى تماما وألقيت مجاديفى . وحولى من كل جانب كان الناس ذوو الأشرعة والمجاديف مدفوعين مع التيار ، وكلهم يؤكد لى ولغيرى — وهم مرحون مبتهجون — أنه ليس فى الامكان أى اتجاه آخر . وصدقتهم وطفوت معهم على متن التيار . و بعد بى الزورق حتى سمعت هدير الجنادل التى لا مناص لى من أن أتحطم على صخورها ، ورأيت بعض الزوارق التى تحطمت

عليها من قبل . فاستجمعت قواى العقلية ولكنى لبثت طويلا لا أستطيع أن أدرك ماحدث لى . ولم أر أمامى غير الهلاك الذى كنت أندفع إليه والذى كنت أخشاه . ولم أجد لى منقذا للخلاص ، ولم أدر ما أفعل . ولكنى صوبت بصرى إلى الوراء فوقعت عيناى على عدد لا يحصى من الزوارق التى تنطلق عبر النهر بقوة و بغير انقطاع ، وتذكرت الساحل والمجاديف ووجهتى ، وشرعت أتقهقر صوب الساحل ضد التيار .

ذلك الساجل هو الله . وتلك الوجهة هى التقاليد ، والمجاديف هى الحرية التى أعطيت لى لكى أسير نحو الساحل وأتحد مع الله . وهكذا تجددت عندى قوة الحياة ، و بدأت أحيا من جديد .

— ١٣ —

انصرفت عن الحياة التى يحياها قرنائى ، وأقررت أن العيشة التى نعيشها ليست هى الحياة ، إنما هى شبه حياة . وأقررت أن الوفرة التى ننعم فى ظلها تحرمنا من فهم الحياة ، وأنى إن أردت أن أفهم الحياة ينبغى لى ألا أفهم تلك الحياة الشاذة التى كنا نحياها نحن المتطفلين على الحياة ، و إنما تلك الحياة تحياها الجموع العاملة الساذجة ( أولئك الذين يخلقون الحياة ) وذلك المعنى الذى يضفونه عليها . وجموع الناس السذج العاملين الذين كانوا حولى هم الروس ، فالتفت إليهم و إلى معنى الحياة عندهم . وهذا المعنى — إذا استطعنا أن نعبر عنه بالكلمات — هو أن كل إنسان قد أتى إلى هذه الدنيا بإرادة الله . وقد ركّب الله الإنسان على صورة يستطيع معها إما أن يقضى على روحه أو أن ينجيها . وهدف الإنسان من الحياة هو أن ينجى روحه ، ولكى ينجيها لا بد له أن يعيش عيشة ترضى الله . ولكى يفعل ذلك ينبغى له أن ينبذ كل ملاذ الحياة ، وأن يعمل ، ويتواضع ، ويكابد المشاق ، وأن يكون رحيما . وهذا المعنى يستخرجه الناس من تعاليم الدين التى تنحدر إليهم عن طريق رعاته وعن طريق التقاليد الشائعة بين الناس . وقد اتضح لى هذا المعنى وحل بقلبى . ولكن إلى جانب هذا المعنى الذى آمنت به الجماهير التى لا تنتمى إلى طائفة دينية بعينها والتى كنت أعيش بينها ، كان هناك شىء كثير شديد الالتصاق به نفرت منه ولم أستطع تفسيره ، كالطقوس الدينية والصلوات الكنسية والصوم وعبادة الآثار القديمة وصور القديسين . ولا يستطيع الناس أن

يفصلوا ذلك المعنى من هذه الأشياء ، ولم أستطع أنا كذلك أن أفعل هذا . ومهما تكن هذه الأشياء التى تغلغت فى عقائد الناس عجيبة فى نظرى ، فقد قبلتها كلها . فأديت الصلاة وركعت خشوعا فى الصباح والمساء وصمت وتأهبت للقاء القربان المقدس . ولم يعترض عقلى فى أول الأمر على شىء من هذا . والأشياء التى كانت فيما سبق تبدو لى مستحيلة لم تبعث فىّ الآن هى عينها أى اعتراض .

إن صلاتى بالإيمان كانت فى آخر الأمر شديدة الاختلاف عن صلاتى به فى أول الأمر . كانت الحياة نفسها فيما سبق تبدو لى مليئة بالمعنى ، وكان الإيمان يتبدّى كأنه قواعد مفروضة على الناس اعتباطا وهى عندى لا ضرورة لها ، ولا تنطبق على العقل بل وعديمة الصلة بالحياة . ثم سألت نفسى : مامعنى تلك القواعد ؟ ولماذا قتنعت بأنها تخلو من المعنى نبذتها . أما الآن فعلى نقيض ذلك عرفت تمام المعرفة أن حياتى بغير ذلك ليس لها معنى ولا يمكن أن يكون لها معنى . ولم تبد لى قواعد الإيمان البتة غير ضرورية — بل على العكس من ذلك أدت بى الخبرة التى لا شك فيها إلى الاعتقاد فى أن هذه القواعد التى يفرضها الإيمان هى وحدها التى تكسب الحياة معنى . وكنت فيما سبق أنظر إليها كما أنظر إلى لغو من القول لا ضرورة له البتة . أما الآن فإن كنت لا أفهمها فإنى أعرف أن لها معنى . فقلت لنفسى لا بد لى أن أتعلم فهمها .

واقتنعت نفسى بأن معرفة الإيمان — كالإنسانية كلها وما لديها من عقل — تتدفق من ينبوع عجيب . ذلك الينبوع هو الله ، أصل الجسم الإنسانى والعقل الإنسانى . وكما أن جسمى هبط إلىّ من الله فكذلك هبط إلىّ عقلى وإدراكى للحياة . ومن ثم فإن المراحل المختلفة لتطور ذلك الإدراك للحياة لا يمكن أن تكون باطلة . كل ما يعتقد فيه الناس مخلصين لا بد أن يكون صادقا . نعم إنه يمكن التعبير عنه بصيغ مختلفة ، ولكنه لا يمكن أن يكون أكذوبة . وإذن فإن بدا لى أكذوبة ، فلا يعنى ذلك إلا أنى لم أفهمه . وقلت لنفسى فوق ذلك إن خلاصة كل عقيدة تنحصر فى إكسابها الحياة معنى لا يهدمه الموت . ومن الطبيعى أن الإيمان لكى يقدر على الإجابة عن مشكلة الملك الذى يموت من الترف ، والعبد المسن الذى يعذبه إرهاق العمل ، والطفل الشاذ ، والشيخ الحكيم ، والمرأة العجوز

التى بهـا مس ، والزوجة الشابة السعيدة ، والشاب الذى تؤرق جنبيه العواطف ، والناس أجمعين فى ظروف الحياة المتنوعة وضروب التربية المختلفة — إن كان هناك جواب واحد عن السؤال الحيوى الأبدى الوحيد : « لماذا أعيش ، وماذا عساه ينجم عن حياتى ؟ » — من الطبيعى أن الإيمان لكى يقدر على الإجابة عن هـذه المسائل لا بد أن تكون إجابته — وإن اتحدت فى روحها — متنوعة فى صيغتها تنوعا لا نهاية له . وكلما آلت الأجوبة إلى التوحيد وكانت أدنى إلى الصدق وإلى العمق ، كان من الطبيعى أن تبدو عجيبة شائهة فى محاولتها التعبير لكى تتفق وتربية كل فرد ومركزه . بيد أن هذا التسلسل الفكرى ، الذى كان يبرر فى نظرى غرابة الكثير من جانب الطقوس فى الدين ، لم يكف أن يسمح لى فى ذلك الموضوع الأوحد الخطير فى الحياة — وأقصد الدين — أن أؤدى أعمالاً تبدو لى مدعاة للسؤال . ووددت بكل نفسى أن أكون فى مركز يهيئ لى الاختلاط بالناس ، وأن أقوم بطقوسهم الدينية ، ولكنى لم أستطع أن أفعل ذلك . وأحسست أنى إن فعلت ذلك أكذب على نفسى وأسخر مما كان لدىّ مقدسا . وعندئذ أسرع إلى إنقاذى كتّابنا الدينيون الروس المحدثون .

وبناء على التفسير الذى يقول به رجال الدين هؤلاء فإن مجموعة العقائد الأساسية لديننا ترمى كلها إلى أن الكنيسة لا تخطىء . وإذا سلمنا بذلك فلا مناص من التسليم بصدق كل ما تزعمه الكنيسة . فأصبحت الكنيسة باعتبارها مجموعة من المؤمنين الصادقين يؤلف بين قلوبهم الحب — ومن ثم فهى تملك المعرفة الصحيحة — أساس عقيدتى . وقلت لنفسى إن الحق السماوى لا يتيسر للفرد منفصلا عن المجموع . إنما يتكشف فقط لمجموع الأفراد بأسره الذين يوحد الحب بين قلوبهم . فلكى يظفر المرء بالحقيقة ينبغى له ألاّ ينفصل ، وينبغى له أن يحب وأن يتحمل أشياء قد لا يوافق عليها .

الحقيقة تكشف عن نفسها للحب . وإذا لم تخضع لطقوس الكنيسة فإنك تعتدى على الحب . وباعتدائك عليه تحرم نفسك من إمكان العلم بالحقيقة . ولم أر فى ذلك الحين السفسطة التى يتضمنها هذا المنطق . لم أر أن الاتحاد فى الحب قد يعطينا من الحب أعظمه ، ولكنه من غير شك لا يعطينا الحق السماوى مصاغا فى الكلمات المحددة التى يضعها فيها مذهب

نيسين Nicene Creed . وكذلك لم أدرك أن الحب لا يمكن أن يجعل من عبارة معينة تُصاغ فيها الحقيقة شرطا إجباريا للاتحاد . لم أدرك فى ذلك الحين هذه المآخذ فى ذلك المنطق . و بفضل هذا الجهل استطعت أن أقبل وأن أؤدى كل طقوس الكنيسة الأرثوذكسية دون أن أفهم أكثرها . ثم حاولت بكل ما فى نفسى من قوة أن أتجنب كل جدل أو تناقض ، واجتهدت أن أفسر مزاعم الكنيسة التى صادفتنى تفسيراً معقولا بقدر الإمكان .

وكنت حينما أؤدى طقوس الكنيسة أخضع عقلى وأسلّم للتقاليد التى تملكها الإنسانية جمعاء . واتحدت مع أسلافى : أبى وأمى وجدودى الذين أحببت . إنهم وكل من سبقنى كانوا يعتقدون وكانوا يعيشون ، وهم الذين نجلونى . وكذلك اتحدت مع ملايين العامة الذين كنت أبجلهم . وفوق ذلك فإن تلك الأعمال لم تتضمن شرا من الشرور ( فلقد كنت أعتبر « الشر » فى استرسال المرء فى شهواته ) . وكنت عند ما أستيقظ مبكراً لصلاة الكنيسة أعلم أننى أفعل خيرا ، على الأقل لأنى أضحى براحتى البدنية كى أُذل كبريائى العقلى ، فى سبيل الاتحاد مع أسلافى ومعاصرىّ ، وفى سبيل العثور على معنى الحياة . وكان الأمر كذلك عند ما كنت أتأهب للتناول ، وعند ما كنت أقرأ دعواتى كل يوم متضرعا ، وكذلك عند ما كنت أحافظ على أيام الصيام . ومهما تكن هذه التضحيات تافهة فقد كنت أقوم بها فى سبيل الخير . فلقد كنت أصوم وأتأهب للتناول وأؤدى صلواتى فى أوقاتها فى البيت وفى الكنيسة . وكنت أثناء الصلاة فى الكنيسة أصغى لكل كلمة وأكسب هذه الكلمات معنى كلما استطعت ذلك . وفى صلاة الجماعة كانت أكثر الكلمات أهمية عندى هذه العبارة « ليحب أحدنا الآخر ولتتحد قلوبنا » أما هذه الكلمات : « إننا نؤمن بالاتحاد ، وكذلك بالأب والابن والروح القدس » ، فقد كنت أمرّ بها مرا سريعا لأنى لم أستطع أن أفهمها .

## — ١٤ —

كان إذن لزاما علىّ أن أعتقد فى الدين لكى أعيش ، فأخفيت عن نفسى — دون أن أشعر — ما تحتويه أصول الدين من متناقضات ومسائل غامضة . ولكن قراءة المعانى هذه فى الطقوس كانت لها حدودها . فلئن ازدادت لى وضوحا الكلمات الرئيسية فى الدعاء للإمبراطور ، ولئن كنت قد عثرت على تفسير لهذه الكلمات : « إننا إن ذكرنا سيدتنا

المقدسة أم الإله وكل القديسين ، إن ذكرنا أنفسنا وذكر أحدنا الآخر ، فإننا بذلك نقدم حياتنا كلها للمسيح ربنا » ، ولئن فسرت لنفسى تكرار الدعاء لقيصر وآل بيته من حين إلى آخر بأنهم أشد تعرضا للإغراء من أى قوم آخرين ، ولذا فهم أشد حاجة إلى أن يُدعى لهم — إنى إن فهمت ذلك فإن الدعوات الخاصة بإخضاع أعدائنا و إخضاع الشر تحت أقدامنا (حتى لو حاولنا أن نقول إن الرذيلة هى العدو الذى ندعو ضده) . هذه الدعوات وأشباهها مثل « نشيد شاروبيم » وكل الطقوس المتعلقة بالفداء ، أو « المحار بين المختارين » الخ — وهى تبلغ ثلثى الصلوات كلها — إما بقيت غير مفهومة تماما ، أو إن حاولت تفسيرها على أية صورة جعلتنى أعتقد أنى أكذب ، وبذلك تهدم علاقتى بالله هدما كاملا وتحرمنى كلية من إمكان الاعتقاد .

وأحسست مثل هذا الإحساس فيما يتعلق بالاحتفال بالأعياد الرئيسية . وأتذكر الآن يوم الأحد ، وهو اليوم السابع من كل أسبوع الذى نكرس أنفسنا فيه لله ، وقد أستطيع أن أدرك هذا المعنى . غير أن العيد الأكبر هو الاحتفال بيوم القيامة ، ولم أستطع أن أصور لنفسى أو أن أفهم حقيقة ذلك اليوم . وهذا الاسم نفسه « القيامة » تُسمى به كذلك العطلة الأسبوعية[1] . وفى هذه الأعياد كنا نقدم القرابين المقدسة ، وذلك مالم أفهمه البتة . أما بقية أيام الأعياد وعدتها اثنا عشر يوما فكلها — ما خلا عيد الميلاد — تخليد لذكرى بعض المعجزات — وهى الأشياء التى تجنبت التفكير فيها لكى لا أكفر : ومن هذه الأعياد عيد الصعود وعيد العنصرة وعيد الغطاس وعيد شفاعة العذراء الخ . وعند الاحتفال بهذه العطلات كنت إما أن أخترع تفسيراً أهدئ به نفسى أو أغمض عينى كى لا أشهد ما يغرينى ، وذلك لأنى كنت أحس أن الأشياء التى ليست لها عندى أهمية تكتسب بهذه الاحتفالات أهمية كبرى .

وقد حدث لى أكثر ذلك عندما كنت أشترك فى الطقوس المألوفة التى تعد ذات أهمية كبرى : مثل التعميد والتناول . هنا كنت ألتقى بأعمال لا أقول إنها غير مفهومة بل أقول إنها جد مفهومة ، فهى أعمال تبدو لى أنها تؤدى إلى الإغراء ، فوقعت فى حيص بيص — إما أن أخاتل أو أن أنبذها .

---

(١) يسمى الروس يوم الأحد يوم القيامة .

ولن أنسى ما حييت ذلك الشعور الأليم الذى أحسست به فى اليوم الذى تلقيت فيه القربان المقدس للمرة الأولى بعد عدة سنوات . فلقد كانت الصلاة ، والاعتراف ، والدعوات جد مفهومة عندى ، و بعثت فىّ إحساسا سارا بأن معنى الحياة قد تكشف لى . وقد فسرت التناول بأنه عمل تؤديه لذكرى المسيح ، ويدل على التطهر من الإثم وعلى قبول تعاليم المسيح كلها . ولئن كان هذا التفسير متصنعا فإنى لم ألاحظ هذا التصنع : ولكم كنت سعيدا لأنى أخضع نفسى وأذلها أمام القسيس — وهو رجل من رجال الدين ساذج ريفى متواضع — وأخرج كل ما بنفسى من قذارة وأعترف بما اقترفت من ذنوب . وكم كنت منشرح الصدر لأنى أشترك بفكرى مع الآباء المتواضعين الذين كتبوا الدعوات الدينية . وكم كنت أبتهج لاتحادى مع كل من آمن ومن يؤمن اليوم ، حتى إنى لم ألاحظ التصنع فى تفسيرى . ولكنى عند ما اقتربت من أبواب المذبح ، ودفعنى القسيس إلى أن أقول بأنى أعتقد بأن الذى أوشك أن أبتلعه هو لحم ودم فعلا ، أحسست بالألم يحز فى قلبى . فلم يكن ما طلب إلىّ باطلا فحسب ، و إنما كان مطلبا قاسيا تقدم به شخص من الأشخاص من الجلى أنه لم يعرف قط ما الإيمان .

وأسمح لنفسى الآن أن أقول إنه كان مطلبا قاسيا ، ولكنى لم أحسبه كذلك فى ذلك الحين . إنما كان شديد الألم على نفسى إلى درجة لا يحيط بها الوصف . فلم أعد فى المركز الذى كنت فيه أيام الشباب ، حينما كنت أحسب أن كل ما فى الحياة واضح . فإننى فى شبابى قد آمنت حقا لأنى — بعيداً عن الإيمان — لم أجد البتة شيئا غير الدمار . ولذا كان من المستحيل أن أنبذ ذلك الإيمان ، فسلمت . وألفيت فى نفسى شعوراً يعينى على تحمله . ذلك هو الشعور بالتواضع و إنكار الذات . فأذللت نفسى وتناولت ذلك اللحم والدم دون إحساس بالعيب فى ذات الله ، بل برغبة قوية فى الإيمان . غير أن الواقعة قد وقعت ، ولما كنت أعلم ما ينتظرنى لم أستطع أن أذهب مرة أخرى .

ولم أنقطع عن أداء طقوس الكنيسة ، وما برحت أعتقد أن التعاليم التى اتبعتها تنطوى على الحق ، و بقيت كذلك حتى وقعت لى واقعة أفهمها الآن ، ولكنها بدت لى حينذاك أمراً عجيبا .

كنت أصغى إلى حديث فلاح أمى حاج عن الله والإيمان والحياة والخلاص حينما تكشف لى العلم بالإيمان . واقتربت من الناس ، وأصغيت إلى آرائهم فى الحياة وفى الإيمان ، وزدت إدراكا للحق . وحدث لى مثل ذلك عندما قرأت مجموعة « حياة القديسين » ، وقد أصبحت أحب الكتب إلى نفسى . ولما غضضت الطرف عن المعجزات واعتبرتها خرافات توضح بعض الآراء كشفت لى قراءة هذه الكتب عن معنى الحياة . قرأت حياة مكاريوس العظيم ، وقصة بوذا ، وكلمات القديس حنا خريستم ، وقصص المسافر والبئر ، والراهب الذى وجد بعض الذهب ، وبطرس صاحب الحان . وقرأت قصص الشهداء ، وكلها تعلن أن الموت لا ينفى الحياة . وقرأت قصص الرجال الأغبياء الجهلاء الذين لا يعلمون شيئا عن تعاليم الكنيسة ولكنهم برغم ذلك قد ظفروا بالخلاص .

ولكنى عندما قابلت المعتقدين فى الدين من العلماء أو تناولت كتبهم ثار فى نفسى الشك والسخط والجدل والحنق ، وأحسست أنى كلما تعمقت معنى كلام هؤلاء الناس ، ازددت بعداً عن الحقيقة وقاربت شفا هوة سحيقة .

— ١٥ —

ولكم غبطت الفلاحين على أميتهم ونقص معارفهم ! فإن تلك المزاعم التى تشتملها المذاهب المختلفة التى كانت فى رأيى سخافات واضحة ، كانت فى رأيهم حقائق لا شك فيها . وكان بوسعهم أن يقبلوها وأن يعتقدوا فى صدق ما اعتقدتُ فيه . غير أنى — أنا ذلك التعس الشقى — كنت أرى بجلاء أن الحق يختلط بالباطل وتربط بينهما خيوط دقيقة ، ولذا فلم أستطع أن أقبله فى تلك الصورة .

وهكذا عشت نحو ثلاث سنوات . وفى أول الأمر عندما كان يربطنى بالحق رباط واهٍ باعتبارى طالبا للتنصر ، وعندما كنت أتحسس فقط ما كان يبدو لى شديد الوضوح ، كانت هذه الأمور التى تصادفنى لا تصدمنى صدمة قوية . فإذا ما استعصى علىّ فهم أمر من الأمور قلت لنفسى « هذا خطأى ، وإنى لآثم » . ولكنى كلما تشبعت بالحقائق التى كنت أتعلمها ، صارت أساساً مكينا لحياتى ، واشتد عسف هذه المصادفات وإيلامها ، واشتد وضوح الخط الفاصل بين ما لا أفهم لأننى لا أستطيع فهمه ، وما لا يُفهم إلا أن يكذب المرء على نفسه .

وبرغم شكوكى وآلامى ما برحت متمسكا بأهداب الكنيسة الأرثوذكسية . ولكن بعض مشاكل الحياة نشأت أمامى ولا بد من البت فيها . والبت فى هذه المسائل عن طريق الكنيسة — وهى تناقض أسس العقيدة التى عشت عليها — اضطرنى أخيراً إلى أن أنبذ التناول على المذهب الأرثوذكسى وأعده أمراً مستحيلا . وهذه المسائل هى : أولا علاقة الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية بالكنائس الأخرى — بالكاثوليك وبمن يسمون أنفسهم بالطائفيين . وفى ذلك الحين اتصلت بالمؤمنين بالعقائد المختلفة وذلك نتيجة لاهتمامى بالدين . فاتصلت بالكاثوليك والبروتستنت وبالمؤمنين الراسخين وبأولئك الذين لا يعتقدون فى الطقوس والتقاليد ، وبغيرهم . وقابلت بينهم رجالا كثيرين ذوى أخلاق رفيعة كانوا متدينين حقا . وأردت أن أآخيهم ، فماذا حدث ؟ إن تلك التعاليم التى تبشر باتحاد الجميع فى عقيدة واحدة وحب واحد — تلك التعاليم نفسها فى شخص خير ممثليها خبّرتنى أن أولئك الناس كانوا يعيشون فى أكذوبة ، وأن الذى أعطاهم قوة الحياة هو إغراء الشيطان ، وأننا نحن وحدنا نملك ما يحتمل أن يكون حقا . ورأيت أن كل من لا يعترف بإيمان يتفق وإيمانهم يعتبر زنديقا عند الأرثوذكس . كما أن الكاثوليك وغيرهم يعتبرون الأرثوذكس زنادقة . ورأيت أن الأرثوذكس ينظرون بعين العداوة إلى كل من لا يعبر عن عقيدتهم بنفس الشارات الخارجية والكلمات التى يستعملونها هم أنفسهم ( وإن كانوا يحاولون إخفاء ذلك ) . وهذا أمر طبيعى : أولا لأن إقرارك بخطئك وصوابى أقسى ما يعترف به إنسان لآخر ، وثانيا لأن الرجل الذى يحب أبناءه وإخوانه لا يسعه إلا أن يكون معاديا لأولئك الذين يحبون أن يردوا أبناءه وإخوانه إلى عقيدة خاطئة . وهذه العداوة تزداد بالنسبة إلى زيادة معارف الإنسان بعلوم الدين . واتضح لى — وأنا أعتقد أن الحق ينحصر فى الاتحاد عن طريق الحب — أن علوم الدين كانت تهدم بنفسها ما كان ينبغى لها أن تبنيه .

وهذا الإغراء واضح جدا لنا نحن المتعلمين الذين عشنا فى بلاد يُعترف فيها بديانات مختلفة ، ورأينا الاحتقار وتقرير الذات والتناقض الشديد الذى يتخذه الكاثوليك نحو الإغريق الأرثوذكس ونحو البروتستانت ، والذى يتخذه الأرثوذكس نحو الكاثوليك والبروتستانت ، والبروتستانت نحو الاثنين ، والموقف المشابه الذى يقفه المؤمنون الراسخون والباشكوفيت (الروس الإنجيليون ) والشيكر وكل الديانات . اتضح لنا ذلك جدا ، حتى إن شدة الوضوح حيرتنا

أول الأمر . يقول المرء لنفسه : يستحيل أن يكون الأمر بهذه البساطة ولا يرى الناس أنه إذا تناقض رأيان فلا يمكن أن ينطوى أحدهما على الحق الوحيد الذى يجب أن يتصف به الإيمان. هنا شىء آخر ، ولا بد من التفسير . ظننت ذلك ، وبحثت عن ذلك التفسير ، وقرأت كل ما استطعت فى هذا الموضوع ، واستشرت كل من استطعت أن أستشير . ولم يقدم لى أحد أى تفسير سوى ذلك الذى يجعل السومسكى هوسار يعتبرون أنفسهم خير كتائب العالم ويجعل الأهلان الأصفر يعتبرون أنفسهم خير الكتائب . إن كل رجال الدين من مختلف النحل لم يخبرونى شيئا — عن طريق خير ممثليهم — سوى أنهم يعتقدون أن الحق لديهم وحدهم ، وأن الآخرين على خطأ ، وأن كل ما يستطيعون عمله أن يدعوا لهم . وقصدت رجال الكهنوت والقسس على مختلف رتبهم والرهبان وسألتهم ، ولكن أحداً منهم لم يحاول أن يشرح لى الأمر سوى رجل واحد فسر كل شىء ، وفسره بصورة لم تدعُنى إلى أن أسأل شخصا آخر بعد ذلك أى سؤال فى هذا الشأن . قلت إن كل رجل من غير المعتقدين يرتد إلى العقيدة ( وشباب جيلنا كله فى مركز يدفعهم إلى ذلك ) يصطدم أولاً بهذا السؤال : لماذا لا توجد الحقيقة فى مذهب لوثر أو فى الكاثوليكية و إنما توجد فى الأرثوذكسية ؟ ولما كان قد تلقى العلم فى المدرسة العليا فلم يسعه إلا أن يعرف — ما لا يعرف الفلاحون — إن البروتستانت والكاثوليك على السواء يؤكدون أن عقيدتهم هى وحدها العقيدة الصادقة . إن شهادة التاريخ لا تكفى ، لأن كل دين يحرّفها وفق مصلحته . قلت لنفسى : هل لا يمكن أن أفهم التعاليم بطريقة أسمى حتى تختفى الفروق من ارتفاعى كما تختفى من نظر الرجل الذى يعتقد اعتقادا صادقا ؟ هلا نستطيع أن نتابع السير فى طريق كالطريق الذى نسلكه مع المعتقدين الراسخين ؟ إنهم يؤكدون أن لديهم صليبا مختلفا فى صورته وأن أناشيد هللويا والموكب الذى يسير حول المذبح تختلف عن نظائرها . ونحن نجيب على ذلك بقولنا : إنكم تعتنقون مذهب نيسين ، والطقوس المقدسة السبعة ، وكذلك نعتقد فيها نحن . فلنتمسك بهذا ، ولتفعلوا ما شئتم فى غير ذلك من الأمور . واتحدنا معهم بوضع المهم من قواعد الإيمان فوق غير المهم . والآن ألا نستطيع مع الكاثوليك أن نقول : إنكم تعتقدون فى كذا وكذا ، وهى الأمور الأساسية . إما عن عبارة فليوك Filioque و إما عن البابا فافعلوا ما شئتم . وهل لا نستطيع أن نقول مثل ذلك للبروتستانت ، ونتحد معهم فى أهم الأمور ؟

ووافقنى محدّثى على رأيى ، ولـكنه أخبرنى أن مثل هـذا التسامح يجلب اللوم على أصحاب السلطات الدينية لأنهم يتخلون عن عقيدة أجدادنا ، وهذا يسبب الانقسام ، وواجب أصحاب السلطة الدينية أن يحافظوا على نزاهة العقيدة الأرثوذكسية الروسية اليونانية الموروثة عن أسلافنا .

وفهمت كل شىء . أنا أبحث عن الإيمان وعن قوة الحياة ، وهم يبحثون عن خير الطرق لأن يؤدوا فى أعين الناس واجبات إنسانية معينة . وإذا أدوا هـذه الأمور الإنسانية فإنما يؤدونها بطريقة إنسانية . ومهما تحدثوا عن إشفاقهم على إخوانهم المخطئين ، وعن التوجه بالدعاء لهم عند صاحب العرش المـكين — فإن تنفيذ الأغراض الإنسانية يتطلب العنف ، وقد كان دائما وسيلة متبعة وما يزال وسوف يظل كذلك . إذا كانت هناك ديانتان ، وكل منهما تعتبر نفسها الديانة الصادقة والأخرى خاطئة ، إذن فلـكى يجذب الناسُ الآخرين إلى الصدق لا بد لهم من التبشير بعقيدتهم . وإذا بُشّر أبناء كنيستهم عديمى الخبرة بتعاليم خاطئة ، ( وكنيستهم هى الـكنيسة الصادقة ) فإن تلك الـكنيسة لا يسعها إلا أن تحرق الـكتب التى تضلل أبناءها وأن تُبعد الرجل الذى يفعل ذلك . ماذا يصنعون بطائفى — يتحرق فى رأى الأرثوذكس بنار عقيدة خاطئة — وهو فى أهم شئون الحياة — فى الإيمان — يضلل أبناء الـكنيسة ؟ ماذا يصنعون به سوى أن يقطعوا رأسه أو أن يزجوا به فى غيابة السجن ؟ فى عهد القيصر الـكسس ميخالوفتش كان الناس يُحرقون ، أى أن أقسى وسائل العقوبة فى ذلك الحين كانت تتبع . وفى الوقت الحاضر كذلك تتبع أقسى وسائل العقاب — وأقصد الحبس فى سجن منعزل (١) .

ثم وجهت نظرى إلى ما يُعمل باسم الدين واشتد جزعى ، وكدت أقسم أن أتخلى عن الأرثوذكسية بتاتا .

والعلاقة الثانية للـكنيسة بمسألة من مسائل الحياة هى فيما يتعلق بالحرب والإعدام .

وكانت الروسيا فى ذلك الحين فى حالة حرب . وبدأ الروس باسم المحبة المسيحية يقتلون أخوانهم . وكان من المستحيل ألاّ أفـكر فى ذلك وألاّ أرى أن القتل شر تنفر منه المبادئ

(١) فى الوقت الذى كتب فيه تولستوى هذه الاعترافات كانت عقوبة الإعدام ملغاة فى الروسيا .

الأولى لأى إيمان . وبرغم ذلك كانت الصلوات تُقام فى الكنائس لنجاح جيوشنا . وأقرّ رجال الدين عندنا أن القتل عمل ينجم عن الإيمان . وإلى جانب القتل أثناء الحرب رأيت خلال الاضطرابات التى أعقبت الحرب أن علماء الدين ورجاله وكبار الرهبان وصغارهم يوافقون على قتل الشباب العاجز المخطىء . ودوّنت كل ما يعمله الرجال الذين يزعمون اعتناق المسيحية ، وكان ذعرى شديدا .

## — ١٦ —

ولم أعد أشك ، واقتنعت اقتناعا تاما أن ليس كل ما يتعلق بالدين الذى أعتنقه صادقا . وكنت فيما سبق أقول إن كله باطل ، ولكنى لا أستطيع أن أقول ذلك الآن . إن مجموعة الناس لها علم خاص بالحقيقة ، وإلاّ ما استطاعوا العيش . وهذا العلم — فوق ذلك — ميسور لى ، لأنى أحسست به وعشت عليه . ولكنى لم أعد أشك فى أن به كذلك شيئا من الباطل . وكل ما كان فيما مضى ينفرنى يتضح أمام عينىّ الآن بجلاء . ومع أنى رأيت أن الأكاذيب التى تتخلل العقيدة الصادقة والتى أنفر منها هى بين الفلاحين أقل منها بين ممثلى الكنيسة ، فقد رأيت أن الباطل يمتزج بالحق ، فى عقيدة الناس كذلك .

ولكن من أين جاء الحق ومن أين جاء الباطل ؟ إن ما يسمونه التقاليد المقدسة والكتاب المقدس يحتوى الحق والباطل على السواء . وكلا الحق والباطل قد تحرر عن طريق ما يسمونه الكنيسة .

وسواء رضيتُ أو لم أرض اضطررت إلى دراسة الكتاب والتقاليد والبحث فيها . وقد كنت حتى آنئذ أخشى البحث فيها .

ثم اتجهت إلى فحص علوم الدين نفسها التى نبذتها من قبل وازدريتها باعتبارها غير ضرورية . وكانت فيما سبق تبدو لى سلسلة من السخافات التى لا ضرورة لها ، حينما كانت تتحوطنى من كل جانب مظاهر الحياة التى كانت تبدو لى واضحة مليئة بالمعانى . والآن كان يسرنى أن أنبذ ما لا يقبله العقل السليم ، ولكنى لست أجد لى ملاذاً . على هذه التعاليم تقوم العقائد الدينية ، أو على الأقل بهذه التعاليم ترتبط ارتباطا وثيقا المعرفة الوحيدة بمعنى الحياة الذى وجدته . ومهما بدت نابية لعقلى القديم الثابت فهى الأمل الوحيد فى النجاة . ويجب

أن تُفحص بعناية وانتباه لكى تُفهم ، ولا يكفى أن أفهمها كما أفهم فروض العلم : إننى لا أبحث عن ذلك ، ولا أستطيع أن أبحث عنه ، بعد ما عرفت خصائص العلم بالإيمان ، ولن أبحث عن تفسير كل شىء . فإنى أعلم أن تفسير كل شىء — كبدء كل شىء — يجب أن يتوارى فى اللانهائى . ولكنى أريد أن أفهم بطريقة تؤدى بى إلى ما لا مناص من عدم تفسيره . أحب أن أقرّ بأن أى شىء يستعصى على التفسير إنما يستعصى لا لأن مطالب عقلى خاطئة ( فهى صحيحة ، ولا أستطيع أن أفهم شيئا بعيداً عنها ) وإنما ذلك لأنى أعترف بحدود قوتى الذهنية . أحب أن أفهم بطريقة تجعل كل شىء يستعصى على التفسير يبدو لى مستعصيا بالضرورة ، ولا يبدو لى شيئا أنا مضطر إلى الاعتقاد فيه اضطراراً .

ولا شك عندى أن فى تعاليم الدين شيئاً من الصدق . ولكنى موقن كذلك أن بها شيئا من الباطل . ولا بد لى أن أميز بين الحق والباطل ، ولا بد لى أن أخلص هذا من ذاك . وأنا مقبل على هذا العمل . وسأبيّن بعد ذلك ما وجدت بالتعاليم من باطل وما وجدت بها من حق وما وصلت إليه من نتائج . وأغلب الظن أنى سأقوم بطبعها يوما ما إن كانت تستحق ذلك وإن كان يريدها أى إنسان[1] .

١٨٧٩

كتبت ماسبق منذ نحو ثلاث سنوات وسوف أقوم بطبعه .

والآن منذ بضعة أيام عندما كنت أراجعه ، وعندما استعدت سلسلة الفكر والمشاعر التى تملكتنى حينما كنت أعيش خلال ذلك كله رأيت أثناء النوم حلما . هذا الحلم يعبر فى إيجاز عن كل ماخبرت وكل ما وصفت . ولذا فإنى أظن أن وصف هذا الحلم لمن فهمونى سيجدد لهم ويوضح ويوحد كل ما قدمت بإسهاب فى الصفحات السابقة . وهذا ما رأيت فى الحلم :—

رأيت أنى كنت مستلقيا فوق الفراش . ولم أشعر براحة أو تعب . وكنت مستلقيا على ظهرى . ولكنى بدأت أفكر كيف وعلام كنت مستلقيا — وهو سؤال لم يطرأ لى حتى آنئذ . ولما نظرت إلى سريرى ألفيتنى مستلقياً فوق وسادات من الأوتار المضفورة

(١) وضع تولستوى بعد ذلك كتابا سماه « عقيدتى » حلل فيه العقيدة المسيحية وفسّر لنا مذهبه .

متصلة بجوانب السرير . ترتكز قدماى على إحدى هذه الوسادات ، وساقاى على أخرى . وأحسست أن قدمىّ وساقىّ مُتْعَبَة . وكأنى كنت أعرف أن تلك الوسادات متحركة ، فبحركة من قدمى دفعت الوسادة القصوى التى كانت عند قدمى — وتصورت أنى بذلك أكون أكثر راحة . غير أنى دفعت الوسادة بعيداً جدا وأردت أن أمسها ثانية بقدمى ، وقد ترتب على هذه الحركة أن انزلقت الوسادة الأخرى من تحت ساقىّ ، وبات ساقاى معلقتين فى الهواء . ثم حركت جسمى كله كى أتزن فى سريرى ، وأنا على يقين تام أننى أستطيع أن أفعل ذلك توا ، غير أن الحركة سببت انزلاق الوسادتين الأخريين من تحتى ، واختلطتا بغيرهما ، وسارت الأمور على غير مايرام . وانزلق الجزء الأسفل كله من جسمى وظل معلقاً ولو أن قدمى لم تمسّا الأرض . ولم يمسكنى بالفراش سوى الجزء الأعلى من ظهرى ، ولم يكن هذا الوضع متعبا فحسب بل لقد أزعجنى . وحينئذ فقط سألت نفسى عن أمر لم يطرأ لى من قبل . سألت نفسى : أين أنا ، وعلام أنا مستلق ؟ وبدأت أتلفت حوالىّ وانظر قبل كل شىء فى الاتجاه الذى كان جسمى معلقا فيه ، وفى الناحية التى أحسست أنى لابد أن أسقط سريعا فيها . نظرت إلى أسفل ولم أصدق عينىّ . لم أكن فقط على ارتفاع يضارع ارتفاع أعلى البروج أو الجبال ، ولكنى كنت على ارتفاع لم أكن أتصوره .

ولم أستطع حتى أن أتبين إن كنت أرى شيئاً إلى أسفل فى تلك الهوة السحيقة التى كنت معلقا فوقها ، وإلى أى اتجاه أنجذب . وانقبض قلبى وحل بى الرعب . إن النظر فى ذلك الاتجاه كان مرعباً . إلى إن نظرت هناك احسست بأنى لابد أن انزلق فى الحال من فوق الوسادة الأخيرة ، ويكون فى ذلك هلاكى . ولم أتجه ببصرى إلى هناك . ولكن عدم النظر كان أسوأ من النظر ، لأنى فكرت ماذا عساه يحدث لى عندما أسقط من فوق الوسادة الأخيرة . وأحسست أنى أفقد سندى الأخير بسبب الخوف ، وأن ظهرى ينزلق تدريجاً إلى أسفل . ولا بد بعد لحظة أن أسقط . ثم عنّ لى أن هذا لا يمكن أن يكون حقيقياً . إنما هو حلم ، فلأتيقظ ! وحاولت أن أنهض ولكنى لم أستطع . فماذا عساى فاعل ؟ واسأل نفسى هذا السؤال واشخص ببصرى إلى أعلى . وفى أعلاى كان هناك كذلك فضاء لا يحد . ثم نظرت إلى السماء العريضة وحاولت أن أنسى اتساع الهوة السفلى . ونسيتها فعلا . إن الهوة السفلى تنفرنى وتبعث فىّ الرعب ، والفضاء العلوى يجذبنى ويشد أزرى . وما زالت تحملنى

فوق الهوة الوسادات الأخيرة التى لم تنزلق من تحتى . وأعرف أنى مازلت معلقا ، ولكنى أنظر إلى أعلى فقط فتتقشع مخاوفى . وكما يحدث فى الأحلام ، نادانى صوت قائلا : « انتبه إلى هذا . إنه هو ! » ثم أنعم النظر فى اللانهاية التى فوقى وأحس بالهدوء . وإنى لأذكر كل ماحدث ، واذكر كيف حدث ، وكيف حركت ساقى ، وكيف تدليت ، وكيف امتلأت نفسى رعبا ، وكيف نجوت من الخوف بالنظر إلى أعلى . ثم اسأل نفسى : والآن ألست معلقا كذى قبل ؟ ولا أتلفت حولى بقدر ما أحس بكل جسمى نقطة الارتكاز التى تمسكنى . وأرى أنى لم أعد معلقا كأنى على وشك السقوط ، بل أرانى ثابت الارتكاز . واسأل نفسى كيف أنا معلق هكذا : واتحسس حولى ، واتلفت هنا وهناك ، وأرى أن ليس تحتى ، تحت جذعى ، وسادة واحدة ، وانى عندما أنظر إلى أعلى استلقى عليها فى وضع مأمون الاتزان ، وانها وحدها كانت تسندنى من قبل . ثم تصورت — كما يحدث فى الأحلام — الطريقة التى كانت تمسكنى : وهى وسيلة طبيعية جدا ، معقولة ، أكيدة . وإن كانت وسيلة لامعنى لها فى عين الرجل المتيقظ . بل لقد أدهشنى حتى فى الحلم أنى لم أفهمها من قبل . بدا لى كأن عند رأسى عموداً ، وهذا العمود النحيل مأمون لا يُشك فيه وإن لم يكن هناك مايستند إليه . ومن هذا العمود يتدلى حبل ملتو بطريقة سهلة تدل على العبقرية . وإن استلقى امرؤ بحصره فى هذا الحبل الملتوى وشخص ببصره إلى أعلى فليس هناك خطر من سقوطه . وقد اتضح لى هذا كله ، وسررت وهدأت نفسى . وبدا لى كأن أحداً يقول لى « تذكر هذا دائما » .

ثم تيقظت

١٨٨٢

مكتبة العرب
مديرها : صلاح الدين البستانى
٢٨ ش كامل صدقى (الفجالة) القاهرة

DATE DUE
SEP 18 '96
28 JUL 1986
24 DEC 1987
- 6 NOV 1995
Circulation Dept.
10 JAN 2015
Circulation Dept.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00311262

American University of Beirut

General Library

891.78
T654iA
C.1